رواية

نوال المنجاوية

ثلاثية طه الكبرى

الجزء الثاني



محمد الملوكي

رواية

نوال الطنجاوية

الجزء الثاني

عَزِيزِي القَارِئ

اسمي نَوال. من طَنجة. في السَّادِسةِ والأربَعين.

ولستُ كاتِبةً ولا أزعُمُ ذلك؛ إنَّما أنا امرأةٌ من بَيتٍ طَنجاويٍّ قَديم، دَرَستُ التَّرجَمةَ ولم أعمَلْ بها، ولي ولَدانِ وبَيتٌ ورَجُلٌ يُحسِنُ إليَّ ولا أُشكيه. وأحسِبُ أنَّ مَن يَراني في السُّوقِ أو في بابِ الثَّانَوِيَّةِ أنتَظِرُ ابني لا يَخطُرُ له أنَّ لي حِكايةً تُحكى. وهذا من حُسْنِ حَظِّي.

ولا أكتُبُ هذه الصَّفحاتِ لأُنصِفَ نَفسي، فإنِّي لستُ مَظلومةً بما يَكفي لأُطالِب. ولا أكتُبُها لأتَّهِمَ أحَداً، فما في الحِكايةِ ظالِمٌ واحِدٌ يُشارُ إليه بالإصبَع؛ وإنَّما فيها رِجالٌ ونِساءٌ فَعَلوا ما رَأوه صَواباً في وَقتِه، وكُنتُ أنا واحِدةً منهم.

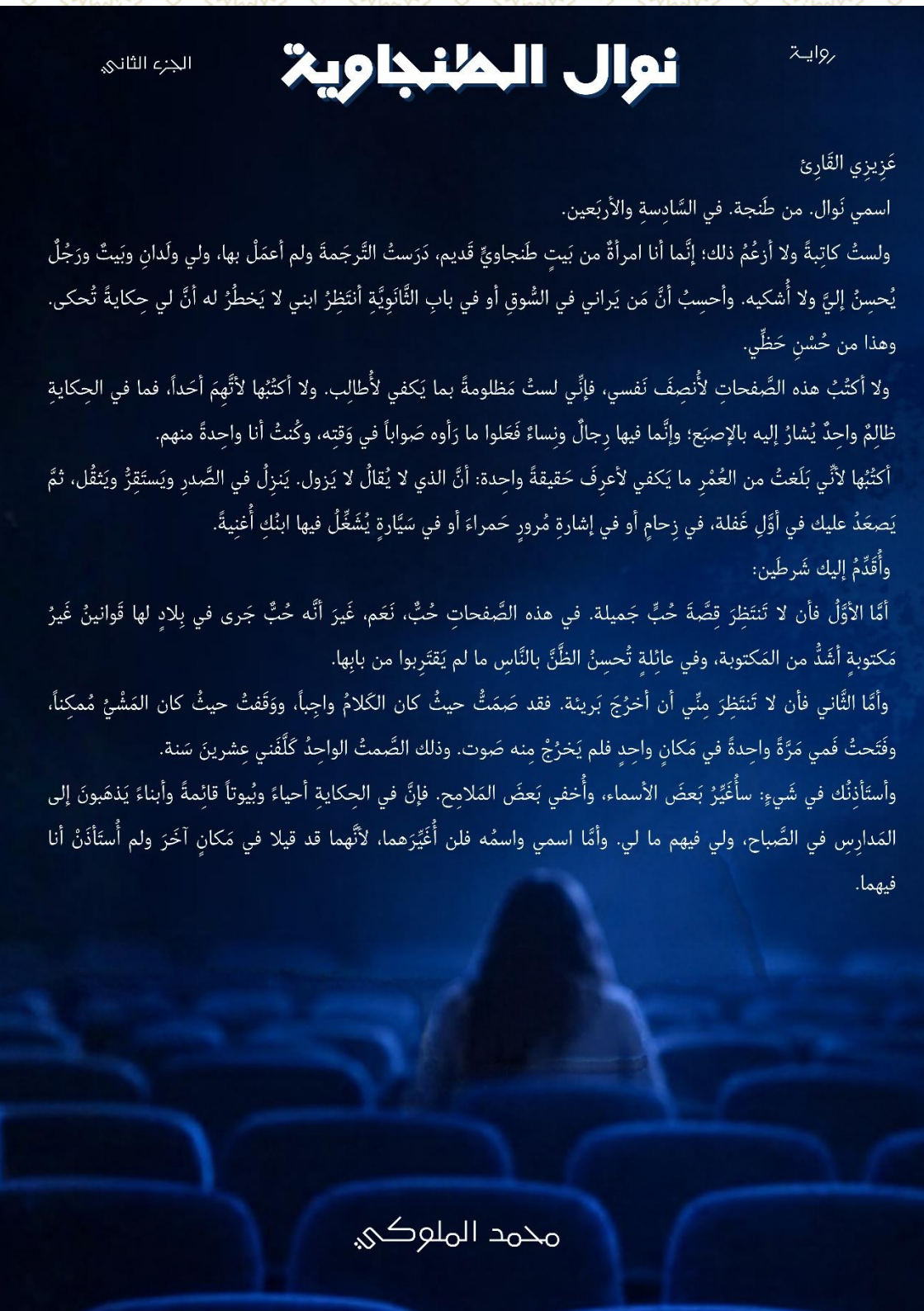
أكتُبُها لأنِّي بَلَغتُ من العُمْرِ ما يَكفي لأعرِفَ حَقيقةً واحِدة: أنَّ الذي لا يُقالُ لا يَزول. يَنزِلُ في الصَّدرِ ويَستَقِرُّ ويَثقُل، ثمَّ يَصعَدُ عليك في أوَّلِ غَفلة، في زِحامٍ أو في إشارةِ مُرورٍ حَمراءَ أو في سَيَّارةٍ يُشَغِّلُ فيها ابنُكِ أُغنِيةً.

وأُقَدِّمُ إليك شَرطَين:

أمَّا الأوَّلُ فأن لا تَنتَظِرَ قِصَّةَ حُبٍّ جَميلة. في هذه الصَّفحاتِ حُبٌّ، نَعَم، غَيرَ أنَّه حُبٌّ جَرى في بِلادٍ لها قَوانينُ غَيرُ مَكتوبةٍ أشَدُّ من المَكتوبة، وفي عائِلةٍ تُحسِنُ الظَّنَّ بالنَّاسِ ما لم يَقتَرِبوا من بابِها.

وأمَّا الثَّاني فأن لا تَنتَظِرَ مِنِّي أن أخرُجَ بَريئة. فقد صَمَتُّ حيثُ كان الكَلامُ واجِباً، ووَقَفتُ حيثُ كان المَشْيُ مُمكِناً، وفَتَحتُ فَمي مَرَّةً واحِدةً في مَكانٍ واحِدٍ فلم يَخرُجْ مِنه صَوت. وذلك الصَّمتُ الواحِدُ كَلَّفَني عِشرينَ سَنة.

وأستَأذِنُك في شَيءٍ: سأُغَيِّرُ بَعضَ الأسماء، وأُخفي بَعضَ المَلامِح. فإنَّ في الحِكايةِ أحياءً وبُيوتاً قائِمةً وأبناءً يَذهَبونَ إلى المَدارِسِ في الصَّباح، ولي فيهم ما لي. وأمَّا اسمي واسمُه فلن أُغَيِّرَهما، لأنَّهما قد قيلا في مَكانٍ آخَرَ ولم أُستَأذَنْ أنا فيهما.



محمد الملوكي

نَوَالُ الطَّنْجَاوِيَّة

رواية

الجُزءُ الثَّاني

محمد الملوكي

الحسابات الرسمية للكاتب



@ELMLLOUKI_OFF



elmllouki_off



El Mllouki Mohamed

قَبْلَ أَنْ تَقْرَأَ

هذه الحِكايةُ في ثَلاثةِ أجزاء، يَحكي كُلَّ جُزءٍ منها صَوتٌ واحِدٌ من ثَلاثةِ أصوات:

الجُزءُ الأوَّلُ: «المُورْفِين» — بلِسانِ صَديقِه، الذي شَهِدَ الحِكايةَ وغَنَّاها.

الجُزءُ الثَّاني: «نَوَالُ الطَّنْجَاوِيَّة» — بلِسانِ المَرأةِ التي عَرَفَتْه صَيفاً واحِداً وحَمَلَتْه عُمراً.

الجُزءُ الثَّالِثُ: «طه الكُوبْرَا» — بلِسانِه هو.

وكُلُّ جُزءٍ يَحملُ ما لا يَعرِفُه الجُزءانِ الآخَران، وفي كُلٍّ منها ما يُصَحِّحُ ما قَبْلَه؛ فثَمَّةَ وَقائعُ يَحكيها الأوَّلُ على وَجْهٍ فيَتَبَيَّنُ في الثَّاني أنَّها جَرَتْ على غَيرِه، ومَواضِعُ يَسكُتُ عنها الأوَّلان فلا يَفتَحُها إلَّا الثَّالث.

فلكَي تَفهَمَ الحِكايةَ لا بُدَّ من قِراءةِ الأجزاءِ الثَّلاثةِ على تَرتيبِها: من المُورفين، إلى نَوال، إلى طه. ومَن قَرَأَ واحِداً منها وَحدَه فقد قَرَأَ شَهادةً صادِقةً ناقِصة.

وهذا هو الجُزءُ الثَّاني.

عتبة

يَقولونَ إنَّ المَرأةَ تَنسى.

وأنا لم أنْسَ

وإنَّما وَضَعتُ الأمرَ في مَوضِعٍ منَ القَلْبِ

لا يُفتَحُ إلَّا مَرَّةً واحِدَةً في العُمرِ.

وقد فُتِحَ.

عزيزي القارئ

اسمي نَوال. من طَنجة. في السَّادسة والأربَعين.

ولستُ كاتبةً ولا أزعُمُ ذلك؛ إنَّما أنا امرأةٌ من بَيتٍ طَنجاويٍّ قَديم، دَرَستُ التَّرجَمةَ ولم أعمَلْ بها، ولي ولَدان وبَيتٌ ورَجُلٌ يُحسنُ إليَّ ولا أُشكيه. وأحسبُ أنَّ مَن يَراني في السُّوقِ أو في بابِ الثَّانَويَّةِ أنتَظِرُ ابني لا يَخطُرُ له أنَّ لي حِكايةً تُحكى. وهذا من حُسْنِ حَظِّي.

ولا أكتُبُ هذه الصَّفحات لأُنصِفَ نَفسي، فإنِّي لستُ مَظلومةً بما يَكفي لأُطالب. ولا أكتُبُها لأتَّهِمَ أحَداً، فما في الحِكايةِ ظالِمٌ واحِدٌ يُشارُ إليه بالإصبَع؛ وإنَّما فيها رِجالٌ ونِساءٌ فَعَلوا ما رَأوه صَواباً في وَقتِه، وكُنتُ أنا واحِدةً منهم.

أكتُبُها لأنِّي بَلَغتُ من العُمْرِ ما يَكفي لأعرِفَ حَقيقةً واحِدة: أنَّ الذي لا يُقالُ لا يَزول. يَنزِلُ في الصَّدرِ ويَستَقِرُّ ويَثقُل، ثمَّ يَصعَدُ عليك في أوَّلِ غَفلة، في زِحامٍ أو في إشارةِ مُرورٍ حَمراءَ أو في سَيَّارةٍ يُشَغِّلُ فيها ابنُكِ أُغنيةً.

وأُقَدِّمُ إليك شَرطَين:

أمَّا الأوَّلُ فأن لا تَنتَظِرَ قِصَّةَ حُبٍّ جَميلة. في هذه الصَّفحاتِ حُبٌّ، نَعَم، غَيرَ أنَّه حُبٌّ جَرى في بِلادٍ لها قَوانينُ غَيرُ مَكتوبةٍ أشَدُّ من المَكتوبة، وفي عائلةٍ تُحسِنُ الظَّنَّ بالنَّاسِ ما لم يَقتَرِبوا من بابِها.

وأمَّا الثَّاني فأن لا تَنتَظِرَ مِنِّي أن أخرُجَ بَريئة. فقد صَمَتُّ حيثُ كان الكَلامُ واجباً، ووَقَفتُ حيثُ كان المَشْيُ مُمكناً، وفَتَحتُ فَمي مَرَّةً واحِدةً في مَكانٍ واحِدٍ فلم يَخرُجْ منه صَوت. وذلك الصَّمتُ الواحِدُ كَلَّفَني عِشرينَ سَنة.

وأستَأذِنُك في شَيءٍ: سأُغَيِّرُ بَعضَ الأسماء، وأُخفي بَعضَ المَلامِح. فإنَّ في الحِكايةِ أحياءً وبُيوتاً قائمةً وأبناءً يَذهَبونَ إلى المَدارِسِ في الصَّباح، ولي فيهم ما لي. وأمَّا اسمي واسمُه فلن أُغَيِّرَهما، لأنَّهما قد قيلا في مَكانٍ آخَرَ ولم أُستَأذَنْ أنا فيهما.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

اسْمِي فِي أُغْنِيَة

في طَنجةَ لشَهرِ نُونبرَ لَونٌ لا يُوجَدُ في مَدينةٍ أُخرى: ضَوءٌ أبيَضُ رَقيقٌ يَنزِلُ من سَماءٍ مُنخَفضة، ورُطوبةٌ تَلتَصِقُ بالزُّجاجِ من داخله فتَمسَحُها بظَهْرِ كَفِّك فتَعودُ، وريحٌ شَرقيَّةٌ تَهُبُّ من المَضيقِ فتُحَرِّكُ أوراقَ الشَّوارِعِ كُلَّها في اتِّجاهٍ واحد.

وكُنتُ في ذلك الصَّباحِ أُوصِلُ ياسينَ إلى الثَّانَويَّة، كما أفعَلُ كلَّ صَباحٍ منذ ثَلاثِ سَنَوات. وياسينُ ابني الكَبير، في السَّادِسةَ عشْرة، طَويلٌ نَحيفٌ قَليلُ الكَلامِ في الصَّباحِ كَثيرُه في المَساء، وله عادةٌ واحِدةٌ لا يَتخلَّى عنها: أن يَضَعَ هاتِفَه في مَأخَذِ السَّيَّارةِ ويُشَغِّلَ ما يَشاءُ من غَيرِ أن يَسألَني.

فشَغَّلَ شَيئاً فيه إيقاعٌ ثَقيلٌ وكَلامٌ سَريعٌ بالدَّارِجةِ لا أتَبَيَّنُ منه إلَّا القَليل. وأنا لا أُحِبُّ هذا اللَّونَ ولا أكرَهُه؛ إنَّما هو ضَجيجٌ من ضَجيجِ أولادِنا، أُطيقُه سَبعَ دَقائقَ في اليَومِ ثُمَّ يَنزِلُ هو وأعودُ أنا إلى صَمتي.

ثُمَّ، عِندَ الدَّوَّارِ، في النِّصفِ الثَّاني من الأُغنِيةِ، سَمِعتُ اسمي.

* * *

سَمِعتُ اسمي ومَعه اسمُ مَدينَتي، في جُملةٍ واحِدةٍ لا أزيدُ على أنَّها كانت تَقولُ إنَّ نَوالَ ما زالَتْ عَزيزةً في القَلْب.

وأُقسِمُ أنِّي وَقَفتُ. وَقَفتُ في وَسَطِ الدَّوَّارِ ورائي سَيَّارتانِ تَصفُران، وياسينُ يَقولُ: ماما! ماما، ما بِك؟ فتَحَرَّكتُ وأنا لا أرى الطَّريق.

قُلتُ له: أعِدْها.

قال: أعيدُ ماذا؟

قُلتُ: الأُغنية. من أوَّلِها.

فنَظَرَ إليَّ نَظرةً فيها عَجَبٌ ثمَّ ضَحِكَ ضِحكةَ الوَلَد الذي اكتَشَفَ أنَّ أُمَّه قد تُطيقُ ما يُطيقُ، وقال: «أنتِ تُحبِّينَ هذا؟ هذا قَديمٌ يا ماما، هذا من أيَّامِكُم».

من أيَّامنا. قالَها وهو لا يَدري أنَّه قال كلَّ شيء.

وأعادَها. وسَمعتُها إلى آخرِها وأنا أسوقُ في سَبعِ دَقائِقَ صارَتْ في عُمري أطوَلَ من سَبعِ سَنَوات. ثمَّ نَزَلَ عِندَ البابِ وحَمَلَ حَقيبتَه وقال: «إلى اللِّقاءِ يا ماما»، وصَفَقَ البابَ كما يَصفُقُه كلَّ يَوم.

وسَألَني قبلَ أن يَنزِل: لِمَ اصفَرَّ وَجهُكِ؟

فقُلتُ: المُكَيِّف.

وهذه أوَّلُ كَذِبةٍ كَذَبتُها على ابني منذ وُلِد.

* * *

ومَضى يَومي كما يَمضي كلُّ يَوم، وهذا من عَجائِبِ المَرأة: أنَّها تُصابُ في السَّاعةِ الثَّامنةِ ثمَّ تُنجِزُ يَومَها إلى آخرِه.

رَجَعتُ فرَتَّبتُ البَيت. ثمَّ اتَّصَلَتْ بي أُمِّي تَسألُ عن صِحَّتي وعن عادلَ وعن الولَدَين، وتَحكي لي عن بِنتِ خالَتي وعن ثَمَنِ السَّمَكِ في سوقِ الدَّاخِل. ثمَّ نَزَلتُ إلى الصَّيدَلِيَّة وإلى الخَيَّاطة. ثمَّ أعَدتُ طَعامَ الغَداءِ ورَفَعتُه ومَسَحتُ الطَّاولة. ثمَّ راجَعتُ لسَلمى دَرْسَ الفيزياء. ثمَّ جاءَ عادلُ في السَّادِسةِ مُتعَباً كما يَجيءُ، فسَألَني عن يَومي فقُلتُ: على خَير.

وفي العاشرة نامَتْ سَلمى، وفي الحاديةَ عشْرةَ أغلَقَ ياسينُ بابَه، وفي الحاديةَ عشْرةَ والنِّصف نامَ عادلُ على يَمينه كما يَنامُ منذ ثَمانيَ عشْرةَ سَنة.

فخَرَجتُ إلى الشُّرفة.

بَيتُنا في المَرشان، وللمَرشان في اللَّيلِ مَنظَرٌ لا أعرِفُ كيف أصِفُه لمَن لم يَرَه: أسفَلَ منك ظُلمةٌ واسعةٌ هي البَحْر، ثمَّ خَطٌّ من أضواءٍ صَغيرةٍ بَعيدةٍ هي السَّاحلُ الآخَر، ثمَّ ضَوءٌ أحمَرُ يَدورُ كلَّ عَشْرِ ثَوانٍ هو مَنارَةُ طَريفة. وتَمُرُّ في الأُفُقِ سَفينةٌ مُضاءةٌ كأنَّها شارِعٌ يَمشي على الماء.

وقد وَقَفتُ على تلك الشُّرفة آلافَ المَرَّات في عُمري. وَقَفتُ فيها بنتاً في السَّابعةَ عشْرةَ تَحلُمُ، وعَروساً في الثَّامنة والعشرينَ تَزورُ بَيتَ أبيها، وأُمّاً تَحمِلُ طِفلاً لا يَنام، وامرأةً شَيَّعَتْ أباها في سَنةِ ألفَينِ وسَبعةَ عَشَر. وما وَقَفتُ فيها مَرَّةً كتلك اللَّيلة.

فإنِّي فَهِمتُ في تلك اللَّيلة شَيئاً مُفزِعاً: أنَّ حكايتي، حكايتي أنا التي عِشتُها بجَسَدي، صارَتْ تَدورُ في المدينة وفي هَواتف الأولاد وأنا لا أدري. يَسمَعُها مَن لا يَعرِفُني ويُرَدِّدُها مَن لم يُولَدْ بَعدَ أن انتَهَتْ، ويَحسِبُها كَلاماً مَوزوناً جاءَ به صاحِبُه من رَأسِه.

وهي لم تَجِئْ من رَأسِ أحَد. هي وَقَعَتْ. وَقَعَتْ لي.

ثمَّ قُلتُ اسمَه.

قُلتُه هَمْساً في شُرفةٍ مُظلمةٍ والبابُ الزُّجاجيُّ مُغلَقٌ من وَرائي، ولم يَسمَعْني أحَدٌ في الدُّنيا.

وكانت تلك أوَّلَ مَرَّةٍ أنطِقُ باسمِه منذ أربَعةَ عَشَرَ عاماً.

ومن تلك الكَلمة الواحدة فُتِحَ البابُ الذي قُلتُ لك إنَّه لا يُفتَحُ إلَّا مَرَّةً. فجاءَ كُلُّ شيءٍ دَفعةً واحدةً كما يَجيءُ الماءُ إذا انكَسَرَ السَّدّ: كازينو في أغادير، ودَرَجٌ حَجَريٌّ نازلٌ إلى الرَّمل، ووَرَقةٌ مَطويَّةٌ كَتَبتُها ثَلاثَ مَرَّاتٍ ومَزَّقتُها مَرَّتَين، وصَوتُ قِطعةٍ نَقديَّةٍ تَسقُطُ في آلةِ

هاتفٍ عُمومِيٍّ في زُقاقٍ بالدَّارِ البَيضاء، وقاعةٌ تَصرُخُ فيها أربَعونَ عائِلةً في وَقتٍ واحِد، وفَمٌ فُتِحَ فلم يَخرُجْ منه صَوت.

فجلَستُ على الكُرسيِّ الحَديديِّ البارِدِ وأنا في قَميصِ نَومٍ ومِعطَفٍ على كَتِفَيَّ، وبَقيتُ هناك إلى أن بَدَأَ الضَّوءُ يَأتي من جِهةِ الشَّرقِ ويَبتَلِعُ أضواءَ السَّاحِلِ الآخَرِ واحِداً واحِداً.

وفي الخامِسةِ والنِّصفِ دَخَلتُ، وغَسَلتُ وَجهي، وأعدَدتُ الفُطور.

الفَصْلُ الثَّانِي

المَرْشَان

لِكَي تَفهَمَ ما جَرَى لي، لا بُدَّ أن تَعرِفَ من أيِّ بَيتٍ خَرَجتُ.

أبي السِّي عبدُ السَّلامِ البَقَّالي، رَحِمَه الله، تاجِرٌ كان له مَكتَبٌ في شارِعٍ يَنزِلُ إلى الميناء، في طابَقٍ أوَّلَ فَوقَ مَحَلٍّ لبَيعِ الحِبال. ولم يَكُنْ من كِبارِ الأغنياء، وإنَّما كان من أهلِ اليُسْرِ الثَّابت: بَيتٌ في المَرشان، وقِطعةُ أرضٍ في طَريقِ تطوان، وتَوقيعٌ يُقبَلُ في بَنكٍ من غَيرِ سُؤال. وكان له في الميناء ما هو أثمَنُ من المال: مَعارِفُ تُحَدِّثُه كلَّ صَباحٍ على فِنجانِ قَهوةٍ بما يَجري في المدينةِ وفي غَيرِها. وهذه الجُملةُ، إن حَفِظتَها، فُسِّرَ لك بها الفصلُ الخامسُ من حِكايتي.

وبَيتُنا بَيتٌ قَديمٌ ذو درَجٍ من الزَّليجِ الأخضَر، وفي وَسَطِه صَحنٌ فيه شَجَرةُ تينٍ غَرَسَها جَدِّي، وفي أعلاه شُرفةٌ تَرى منها إسبانيا. ولم تَكُنْ إسبانيا عندَنا حُلْماً ولا مَمنوعاً؛ كُنَّا نَعبُرُ إلى الجَزيرةِ الخَضراءِ في كلِّ صَيفٍ كما يَعبُرُ النَّاسُ إلى الحَيِّ المُجاوِر، ونَشتَري من مالقة، وأُمِّي تُسَمِّي الأشياءَ بأسمائِها الإسبانيَّةِ من غَيرِ أن تَشعُر. وفي المَدرَسةِ تَعَلَّمتُ الفَرَنسيَّة، وفي البَيتِ تَعَلَّمتُ الإسبانيَّة، وفي الجامِعةِ اختَرتُ التَّرجَمة.

فما كانت الدُّنيا مُغلَقةً عليَّ. وهذا أعجَبُ ما في حِكايتي: أنَّ الأبوابَ كُلَّها كانت مَفتوحةً أمامي إلَّا باباً واحِداً، وكان ذلك البابُ هو الوَحيدَ الذي أرَدتُه.

* * *

وها هنا يَجبُ أن أقولَ شَيئاً عن نَفسي، وأقولُه بلا دَلالٍ ولا تَواضُعٍ كاذِب، لأنَّه يُفَسِّرُ كَثيراً مِمَّا جَرى.

كُنتُ جَميلة.

كُنتُ شَقراءَ بَيضاءَ من تلك الوُجوه الشَّماليَّة التي يَكثُرُ مثلُها في طَنجةَ وفي شَفشاونَ وفي القُرى المُعَلَّقة على الجبال هناك؛ شَعرٌ فاتحٌ كان في طُفولَتي أقرَبَ إلى لَون القَشِّ ثمَّ اسمَرَّ قَليلاً، وبَشَرةٌ لا تَحتَملُ الشَّمسَ ساعةً، وعَينان فيهما خُضرةٌ مُشَوَّبةٌ بالرَّماد تُورَثُ في بَيت أُمِّي عن جَدَّتها. وكُنتُ طَويلةً أطوَلَ من بَنات سِنِّي. وكان السَّائحُ في شارِع إسبانيا يُخاطِبُني بالإسبانيَّة أوَّلاً، فأُجيبُه بها فلا يَكتَشِفُ شَيئاً؛ ثمَّ أقولُ له من أينَ أنا فيَعتَذِر، ولا أدري إلى اليَومِ عَمَّا كان يَعتَذِر.

غَيرَ أنَّ هذا الجَمالَ، أيُّها القارئ، لم يَكُنْ لي.

هذه هي الحَقيقةُ التي عَرَفتُها مُتَأخِّرةً: أنَّ جَمالَ البِنت في بَيت كبَيتِنا رَأسُ مالٍ في يَد البَيت لا في يَدِها. يُحسَبُ ويُصانُ ويُؤَمَّنُ عليه ويُنتَظَرُ به ما هو آت. ومن أجلِ ذلك كانت لي قَوانينُ لم تَكُنْ لأخي: مَتى أخرُجُ ومتى أرجِع، ومع مَن أمشي في شارِعِ باستور، وماذا ألبَسُ إذا نَزَلتُ إلى السُّوق، وأيُّ البَنات تُزارُ وأيُّهُنَّ لا تُزار. وكانت خالاتي إذا جِئْنا في العيد يَنظُرْنَ إليَّ نَظرةَ التَّاجِرِ إلى البِضاعةِ الجَيِّدةِ ويَقُلْنَ لأُمِّي كَلاماً فيه ثَناءٌ وفيه تَحذيرٌ في وَقتٍ واحِد: «اللهُ يَحفَظُها لك».

ومن سَنةِ السَّابعةَ عشْرةَ بَدَأَ الطَّارِقون. ثَلاثةٌ في سَنَتَين. وما كانوا يُسألونَ عن شَيءٍ قبلَ اللَّقَبِ والمِهنةِ والأصل. وكُنتُ أجلسُ في الغُرفةِ المُجاوِرةِ أسمَعُ وأنا لا أُسألُ إلَّا في الآخِرِ، وسُؤالٌ واحِدٌ شَكْليٌّ تَعرِفُ أنتَ جَوابَه قَبْلَ أن يُطرَح.

ثمَّ، من غَيرِ خطبةٍ ولا كَلامٍ صَريحٍ ولا ذِكْرِ تاريخ، صارَ في البَيتَين ما يُسَمُّونَه عندَنا «تَفاهُماً»: ابنُ عَمِّي عادلُ الخَرَّاز، مُهَندِسٌ في الدَّارِ البَيضاء، رَجُلٌ لا يُعابُ في شيء. لم يُقَلْ لي: هذا زَوجُك. وإنَّما صارَ اسمُه يُذكَرُ في البَيتِ بطَريقةٍ مُعَيَّنة، وصارَتْ أُمِّي تَقولُ أمامي «إذا شاءَ اللهُ» ولا تُسَمِّي الشَّيءَ الذي تَشاءُ أن يَكون. وفي بلادنا تُحسَمُ المَصائرُ بهذه الطَّريقةِ بالذَّات: لا بأمرٍ يُعصى، وإنَّما بجَوٍّ لا تَستَطيعُ أن تُخالِفَه لأنَّك لا تَجِدُ له جُملةً تَعتَرِضُ عليها.

* * *

وأمَّا أنا، فكان لي في تلك السِّنينَ شَيءٌ واحِدٌ أُريدُه، وأكتُبُه الآنَ فأستَحي من بَساطته: أرَدتُ أن أعمَل.

أرَدتُ أن أكونَ مُترجِمةً في الميناء. كُنتُ أراه من شُرفَتي كلَّ صَباح: الرَّافعاتُ الصَّفراءُ، والبَواخِرُ، والأعلامُ التي لا أعرِفُ بلادَها، والرِّجالُ يَصعَدونَ ويَنزِلون. ورأيتُ مَرَّةً، وأنا في الخامسةَ عشْرة، امرأةً في معطَفٍ كُحْليٍّ تَمشي مع ثَلاثة رِجالٍ أجانبَ وتُكَلِّمُهم وهم يَستَمِعون، فسَألتُ أبي: مَن هذه؟ فقال: «مُترجِمة». فبَقِيَت الكَلِمةُ في رأسي سَنَوات.

وقُلتُها لأبي مَرَّةً واحِدةً في العِشرين. فسَمِعَني إلى آخري ولم يُقاطِعْني، ثمَّ طَوى الجَريدةَ على رُكبتِه وقال: «نَوال. الميناءُ فيه رِجال». ولم يَزِدْ. ولم أزِدْ.

وهذا كُلُّ ما جَرى. ولم تَكُنْ في الأمرِ قَسْوَةٌ ولا صِياحٌ ولا بابٌ أُغلِقَ عليَّ، وإنَّما جُملةٌ من ثَلاث كَلِمات قالَها رَجُلٌ يُحِبُّني ويُريدُ لي الخَير. وقد فَهِمتُ بَعدَ عِشرينَ سَنَةً أنَّ هذا هو أشَدُّ ما يُقَيِّدُ النَّاسَ: لا الظُّلْمُ الصَّريحُ الذي يُقاوَم، وإنَّما الشَّفَقَةُ المُنَظَّمة.

* * *

فكانتْ حَياتي في صَيف سَنَة ألفَين على هذه الصُّورة: بنتٌ في العِشرينَ من بَيتٍ مُقتَدِر، جَميلةٌ يُقالُ لها ذلك عَشْرَ مَرَّاتٍ في اليَوم، تَقرَأُ بثَلاثِ لُغاتٍ ولا تُستَشارُ في شَيء، وتَعبُرُ البَحرَ

في الصَّيفِ ولا تَعبُرُ شارِعَ باستور وَحدَها بَعدَ الثَّامنة، وأمرُها قد صارَ مَفروغاً منه وهي لم تَقُلْ نَعَمْ ولا لا.

وكُنتُ أحسبُ نَفسي راضية. أقولُها بصدق: ما كُنتُ أشكو، ولا كان في صَدري غَضَبٌ أعرِفُه. فإنَّ القَفَصَ إذا كان واسِعاً ونَظيفاً ومَفتوحاً إلى البَحْرِ لا يُسَمِّيه صاحِبُه قَفَصاً؛ إنَّما يُسَمِّيه بَيتاً، ويَشكُرُ اللهَ عليه، وهو صادِقٌ في شُكرِه.

لم أعرِفْ أنَّه قَفَصٌ إلَّا في الصَّيفِ الذي رَأيتُ فيه، للمَرَّةِ الأولى في عُمري، إنساناً لا بابَ عليه.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

صَيْفٌ لَمْ يَكُنْ فِي الحِسَاب

في يوليوزَ من سَنةِ ألفَينِ نَزَلنا إلى أغادير.

وكانت الرِّحلةُ رِحلةَ خالي، أخي أُمِّي، رَجُلٌ طَيِّبٌ مُبَدِّدٌ للمالِ يُحبُّ الضَّحكَ ويُحِبُّ أن يَخسَر؛ أخَذَ زَوجتَه وبنتَيه وأخَذَني معهم لأنَّ بنتَه الكُبرى لا تُسافِرُ دونَ رَفيقةٍ من العائلة. وأذِنَ أبي، إذ كان الأمرُ في عائلتِنا لا في عالَمِ الغُرَباء.

وخالي، رَحِمَه الله، كان في عائلتنا شَيئاً آخَرَ لا يُشبِهُ أحَداً. قَضى سَبعةَ عَشَرَ عاماً في بلجيكا يَعمَلُ ويَدرُسُ ثُمَّ رَجَعَ، فرَجَعَ بعَقلٍ أوروبيٍّ لم تَستَطِعْ طَنجةُ كُلُّها أن تُعيدَه إلى ما كان. ولم يَكُنْ مُتَساهِلاً من ضَعْفٍ ولا من غَفلة؛ إنَّما كان يَرى الأمرَ على غَيرِ ما يَراه أهلُنا.

لم يَسألْني في ذلك الصَّيفِ مَرَّةً واحدةً: أين كُنت؟ ولا: مع مَن؟ ولا: لِمَ رَجَعت في هذه السَّاعة؟ وكُنتُ أدخُلُ في الحاديةَ عشْرةَ فأجِدُه جالِساً أمامَ التِّلفازِ فيَرفَعُ يَدَه ويَقول: «تَعَشَّيت؟». هذه كُلُّ الأسئلةِ التي سَأَلَني إيَّاها في ثَلاثةِ أسابيع.

وقد قال لي مَرَّةً واحدةً جُملةً فَهمتُها بَعدَ عشرينَ سَنة. كُنَّا على الشُّرفة وهو يَشرَبُ قَهوتَه، فقال من غَيرِ مُقَدِّمة: «نَوال. البِنتُ التي تُحرَسُ تَتَعَلَّمُ الكَذِب، والبِنتُ التي تُؤتَمَنُ تَتَعَلَّمُ الحِساب. وأنا أُؤتَمِنُك». ثمَّ سكَتَ ولم يَزِدْ.

ولم يَكُنْ في البَيتِ من يُراقِبُني ولا من يُحاسِبُني ولا من يَعُدُّ خُطُواتي. وهذا وَحدَه كان أعجَبَ من البَحْرِ ومن المدينة ومن كُلِّ ما رأيتُ هناك؛ فإنِّي عَرَفتُ في ذلك الصَّيف، أوَّلَ مَرَّةٍ في عُمري، ماذا يَعني أن يَكونَ الإنسانُ مَسؤولاً عن نَفسِه لا مَحروساً من نَفسِه.

وأغادِيرُ في ذلك الصَّيف كانت شَيئاً آخَر. مَدينةٌ لا أعرِفُ فيها أحَداً ولا يَعرِفُني فيها أحَد. وهذه الجُملةُ، لِمَن لم يَعِشْ في مَدينةٍ صَغيرةٍ لها ذاكِرةٌ كذاكِرةِ طَنجة، لا مَعنى لها؛ وأمَّا لي فقد كانتْ تَعني أنِّي أستَطيعُ، أوَّلَ مَرَّةٍ في عُمري، أن أنزِلَ إلى شارِعٍ وأمشي فيه وأنا أحمِلُ اسمي فَقَط لا لَقَبَ أبي.

* * *

في اللَّيلةِ الخامسةِ دَخَلنا كازينو أطلانتيك.

كان خالي يَلعَبُ ونَحنُ نَنظُرُ. وكانت القاعةُ تَضِجُّ بأصواتِ الآلاتِ الفضِّيَّة، ودُخانٌ مُعَلَّقٌ تَحتَ الضَّوء، ورِجالٌ في قُمصانٍ قَصيرةِ الأكمامِ يَضَعونَ ويَخسَرونَ ويَضحَكون. وخَسِرَ خالي في عَشْرِ دَقائِقَ ما يَكفي أُسرةً شَهراً، ثمَّ رَفَعَ كَفَّيه إلى السَّماءِ وقال كَلاماً فيه حَمْدٌ وفيه شَكوى، فضَحِكتُ.

ضَحِكتُ ضِحكةً عاليةً بلا احتِساب، وما في القاعةِ من يَعرِفُني.

ثمَّ انتَبَهتُ إلى شابٍّ واقِفٍ على مَسافةِ خُطواتٍ يَنظُرُ إليَّ.

وأنا امرأةٌ عاشَتْ عشرينَ سَنةً يَنظُرُ إليها النَّاس، فأعرِفُ النَّظَرات وأُصَنِّفُها تَصنيفاً دَقيقاً لا تَعرِفُه إلَّا من جَرَّبَتْه: نَظرةُ الطَّامِع، ونَظرةُ المُقَيِّم، ونَظرةُ المُتَفَضِّل، ونَظرةُ الذي يَحسَبُ ثَمَنَ ثِيابِكِ. وما كانتْ نَظرَتُه من هذه.

كان يَنظُرُ إليَّ كمن سَمِعَ شَيئاً لا كمن رَأى شَيئاً.

ثمَّ انصَرَفَ ولم يَتقَدَّمْ ولم يَقُلْ كَلِمة. وهذه أوَّلُ مَرَّةٍ في حَياتي يُنظَرُ إليَّ ولا يُقالُ لي شَيء، فبَقِيتُ أُفَكِّرُ في ذلك طُولَ تلك اللَّيلة؛ ولو تَقدَّمَ لَنَسِيتُه قَبْلَ أن أخرُجَ من القاعة.

* * *

رَأيتُه في اللَّيلةِ التَّاليةِ على الكورنيش.

خَرَجنا جَميعاً، ثمَّ تَخَلَّفَ خالي عِندَ مَقهًى مع رَجُلٍ عَرَفَه، وانصَرَفَتْ بِنتاه إلى واجِهاتِ الدَّكاكين، فمَشَيتُ أنا على الرَّصيفِ الطَّويلِ ومَشى هو قُربي. ولا أدري من مَشى إلى الآخَر، وقد قَلَّبتُ الأمرَ سِنينَ ولم أهتَدِ؛ وأحسِبُ أنَّنا مَشَينا.

ومَشَينا حتَّى انتَهَتِ الأضواءُ وبَدَأَ هَديرُ المُحيطِ وَحدَه. وما كان في كَلامنا تلك اللَّيلةَ شَيءٌ يُحفَظُ أو يُروى: الدِّراسةُ، والمَدينَتان، وأيُّ البَحرَينِ أبرَد، وفِلمٌ رَآه ولم أرَه. كَلامُ فَتًى وفَتاةٍ في العِشرين.

غَيرَ أنِّي لاحَظتُ ثَلاثةَ أشياءَ لم أنْسَها إلى اليَوم. أوَّلُها أنَّه كان يَستَمِعُ إذا تَكَلَّمتُ، يَستَمِعُ استِماعاً تامًّا لا يَقطَعُه ولا يُحَضِّرُ في أثنائه جَوابَه. والثَّاني أنَّه لم يَسألْني عن عائلتي ولا عن لَقَبي ولا عن عَمَلِ أبي؛ ولم يَكُنْ ذلك تَأدُّباً، وإنَّما لأنَّ الأمرَ لم يَخطُرْ له. والثَّالثُ أنَّه كان يَتكَلَّمُ عن أبيه كَثيراً وبإعجابٍ شَديد، وكُنتُ أسمَعُه فيَرتَجِفُ في صَدري شَيءٌ لم أفهَمْه إلَّا بَعدَ سَنَوات.

وعِندَ الدَّرَجِ الحَجَريِّ النَّازِلِ إلى الرَّملِ سَألتُه عن اسمِه.

قال: طه.

فقُلتُ: طه فَقَط؟

قال: طه فَقَط.

* * *

ولِمَ سألتُ ذلك السُّؤال؟

لأنَّ في طَنجةَ لا أحَدَ اسمُه اسمٌ واحد. تَسألُ عن إنسان فيُقالُ لك: فُلانٌ ابنُ فُلان، من أولاد فُلان، أهلُه من كذا، وجَدُّه كان كذا. يُقَدَّمُ الرَّجُلُ إليك مَلَفّاً كاملاً قبلَ أن تُصافحَه، فتَعرِفُ كيف تُخاطِبُه وأينَ تُجلسُه وبمَن تُزَوِّجُه. ونَحنُ أنفُسُنا نُعَرِّفُ أنفُسَنا بهذه الطَّريقة: أنا بِنتُ البَقَّالي. قُلْتُها في عُمري أكثَرَ ممَّا قُلتُ: أنا نَوال.

فجاءَني رَجُلٌ قال اسمَه ووَقَف. لا لَقَبَ، ولا أصلَ، ولا مَلَفَّ. وكان ذلك أحَرَّ شَيءٍ رَأيتُه في عُمري.

وأنا أعلَمُ الآنَ أنَّه ما كان يَكتُمُ شَيئاً في تلك اللَّيلة؛ إنَّما هو فَتًى من فيلَّا في الدَّارِ البَيضاء لم يَحتَجْ قَطُّ إلى أن يُقَدِّمَ نَفسَه بشَيءٍ غَيرِ نَفسه. وأنا حَسِبتُ الدَّلالَ حُرِّيَّة. وهكذا يُخطِئُ النَّاسُ في أوَّلِ أعمارِهم: يَرَوْنَ النِّعمةَ فيَحسِبونَها خُلُقاً.

* * *

وها هنا أقولُ حَقيقةً قاسيةً عليَّ، وأقولُها الآنَ لأنِّي إن لم أقُلْها في أوَّلِ الحِكايةِ صارَ كُلُّ ما بَعدَها تَزويقاً.

لو كان فَقيراً في ذلك الصَّيف لَما عَرَفتُه ولا التَقَينا. هذه أوَّلُ حَقيقةٍ أقولُها، فمَن أرادَ أن يَحتَفِظَ بصُورَتي فلْيُغلِقِ الكِتابَ هنا.

وأُفَصِّلُ، لأنَّ العبارةَ على إجمالِها تَظلِمُني: ما قُلتُ إنِّي أرَدتُ مالَه، فما سألتُ عن مالِه يَوماً ولا عَرَفتُ كم هو. وإنَّما أقولُ شَيئاً أقسى وأصدَق: أنَّ البابَ الذي تَلاقَينا عندَه كان بابَ الأغنياء. كازينو، وفُندُقٌ على الكورنيش، ورَصيفٌ لا يَمشي عليه في تلك السَّاعة من ليسَ له ما يُنفِق. ولو كان في ذلك الصَّيف في زُقاقٍ بالدَّارِ البَيضاءِ يَجمَعُ الحَديدَ ويَبيعُه بالوَزْن، لَما وَقَعَتْ عَيني على عَينِه ولا سَمِعتُ صَوتَه، ولَمَرَرتُ من جانِبِه مَرَّةً في عُمري ولم أرَه.

فالذي جَمَعَنا لم يَكُنِ القَدَرَ وَحدَه، وإنَّما كان المالُ أيضاً. وأمَّا الذي بَقِيَ بَعدَ أن ذَهَبَ المالُ، فذاك كان لي وَحدي؛ ولم يُعْنِني عليه أحَدٌ ولا أثابَني عليه أحَد.

* * *

ثُمَّ مَضَتْ ثَلاثةُ أيَّامٍ لم أرَه فيها.

ولا أستَطيعُ أن أشرَحَ لك ما جَرى لي في تلك الأيَّامِ الثَّلاثة. كُنتُ أنزِلُ إلى الكورنيشِ في السَّاعة نَفسها وأقولُ لنَفسي إنِّي نَزَلتُ للبَحْر، وكُنتُ أعرِفُ أنِّي أكذِبُ، وكُنتُ أُصَدِّقُ كَذِبي لأنِّي كُنتُ أُريدُ أن أنزِل.

وفي اللَّيلةِ الثَّالثة جَلَستُ وكَتَبتُ.

كَتَبتُ وَرَقةً. ومَزَّقتُها. وكَتَبتُ ثانيةً وأطَلتُ فيها، فقَرَأتُها فاستَحيَيتُ ومَزَّقتُها. ثُمَّ كَتَبتُ الثَّالثةَ وفيها اثنتا عَشْرةَ كَلمةً لا غَير: «الميناءُ. السَّادسةُ. عندَ قَواربِ الصَّيد». ولم أُوَقِّعْ ولم أكتُبِ اسمي، لا احتياطاً، وإنَّما لأنَّ يَدي ارتَجَفَتْ عندَ الاسم.

ونَزَلتُ في الصَّباحِ إلى مَكتَبِ فُندُقِه — وقد عَرَفتُ فُندُقَه من كَلامِ عارضٍ قالَه ليلةَ الكورنيش ولم يَعرِفْ أنِّي حَفِظتُه — ووَقَفتُ أمامَ الرَّجُلِ وَراءَ الطَّاولةِ ومَدَدتُ الوَرَقةَ وقُلتُ اسمَه.

فنَظَرَ إليَّ نَظرةً أعرِفُها، نَظرةَ الرَّجُلِ الذي يَرى بِنتاً من بَيتٍ مُحترَمٍ تَصنَعُ شَيئاً لا تَصنَعُه بَناتُ البُيوتِ المُحترَمة، وقال: «أمرُكِ يا لالَّة».

وخَرَجتُ أمشي في الشَّمسِ وأنا أرتَجِفُ وقَلبي يَضرِبُ في حَلْقي، وأنا أعرِفُ أنِّي فَعَلتُ في تلك الدَّقيقةِ أجسَرَ شَيءٍ فَعَلتُه في عِشرينَ سَنة. ولو رَآني أبي لَما ضَرَبَني ولا صاحَ؛ إنَّما كان يَنظُرُ إليَّ ويَطوي الجَريدةَ على رُكبتِه.

* * *

وجاءَ قَبْلَ المَوعِدِ بأربَعينَ دَقيقة.

عَرَفتُ ذلك لأنِّي أنا جِئتُ قَبْلَ المَوعِدِ بعَشْرِ دَقائقَ فوَجَدتُه واقفاً هناك منذ نصف ساعة بينَ الشِّباكِ المُبَلَّلة ورائحةِ السَّردين، وثِيابُه قد أخَذَتْ من رائحةِ المَكانِ شَيئاً، وهو يَنظُرُ إلى ساعةٍ في مِعصَمِه كُلَّ قَليل.

فعَرَفتُ، وأنا أراه من بَعيدٍ قَبْلَ أن يَراني، أنَّ الأمرَ قد خَرَجَ من يَدي.

وأمَّا ليلى، بِنتُ خالي الكُبرى، فإنَّها هي التي عَلَّمَتْني كُلَّ شَيءٍ في تلك الأسابيع.

كانتْ تَكبُرُني بسَنةٍ وتَصغُرُني في العَقلِ بعَشْر، أو هكذا كُنتُ أحسبُ حتَّى تَبَيَّنَ لي أنَّ العَكسَ هو الصَّحيح. فقد كانتْ لها حكايةٌ قَبْلَ حكايتي: شابٌّ من الدَّارِ البَيضاءِ يُصَيِّفُ هناك مع أهلِه، تَعرِفُه منذ صَيفَين، يَنتَظِرُها عِندَ الدَّرَجِ الثَّاني من الفُندُقِ كلَّ مَساء.

فعَرَفتُ أمرَها في اللَّيلةِ الثَّانيةِ من غَيرِ أن تُخبِرَني، وعَرَفَتْ أمري في اللَّيلةِ السَّابعةِ من غَيرِ أن أُخبِرَها. ثمَّ جَلَسنا على سَريرٍ واحدٍ في غُرفةٍ واحِدةٍ وضَحِكنا ضَحِكاً كَتَمناه في الوِسادةِ، وعَقَدنا اتِّفاقاً.

واتِّفاقُنا كان على الصُّورة التي تَعرِفُها كُلُّ بنتَينِ في هذه البلاد: أنا أخرُجُ وهي تَقولُ إنَّنا معاً، وهي تَخرُجُ وأنا أقولُ إنَّنا معاً. فإن سُئلتْ إحدانا كان الجَوابُ حاضِراً، وإن تَأخَّرَتْ إحدانا كانتِ الأُخرى في الغُرفةِ تُشعِلُ الضَّوءَ وتَفتَحُ التِّلفازَ وتَترُكُ البابَ على حالِه.

وأمَّا خالَتي، زَوجةُ خالي، فإنَّها كانتْ تَعلَمُ. تَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ أو ما يَكفي منه، كما تَعلَمُ الأُمَّهاتُ دائماً. ومع ذلك لم تَسألْ ولم تُخبِرْ ولم تَعتَرِض.

ومَرَّةً واحِدةً — ولا أنساها — رَجَعنا في الواحِدة بَعدَ مُنتَصَفِ اللَّيلِ وقد تَعَطَّلَتْ سَيَّارةُ أُجرة، فوَجَدناها جالِسةً في الصَّالونِ بثَوبِ نَومِها لا تَنام. فوَقَفنا في البابِ كالمُتَّهَمَتَين. فنَظَرَتْ إلينا نَظرةً طَويلةً ثمَّ قامتْ وقالتْ جُملةً واحِدةً: «في المَطبَخِ خُبْزٌ وشايٌ. كُلا ونامَا».

ثمَّ دَخَلَتْ غُرفَتَها. وفي الصَّباحِ لم يَكُنْ في الدُّنيا شَيءٌ قد حَدَث.

وقد فَهِمتُ بَعدَ سَنَوات أنَّ تلك المَرأةَ كانتْ أذكى منَّا جَميعاً. فإنَّها لم تَكُنْ غافِلةً ولا مُتَهاونةً في بنتِها، وإنَّما كانتْ تَعرِفُ ما لا يَعرِفُه أهلُنا في طَنجة: أنَّ البنتَ التي تَجِدُ في بَيتِها مَن يَستُرُها لا تَحتاجُ إلى أن تَستُرَ نَفسَها بالكَذِب، والتي لا تَجِدُ أحَداً تَبني بَيتاً ثانياً لا يَدخُلُه أهلُها أبَداً.

وأنا بَنَيتُ ذلك البَيتَ الثَّانيَ بَعدَ ذلك بشَهرَين، في طَنجة، ولم يَدخُلْه أحَدٌ من أهلي سَبعَ سَنَوات.

* * *

ومَضى ذلك الصَّيفُ كما تَمضي الصُّيوفُ التي يُحكى عنها أربَعينَ سَنة: سَيَّارةٌ مَكشوفةٌ وطَريقٌ ساحليٌّ في الغُروب، وسَمَكٌ مَشويٌّ على خَشَبٍ خَشِن، وليالٍ في بابَاغايو حيثُ المُوسيقى تَمنَعُ الكَلامَ فيَصيرُ النَّظَرُ هو الكَلام، وليلى وصاحِبُها في طاوِلةٍ وأنا وطه في طاوِلةٍ وكِلتانا تَنظُرُ إلى الأُخرى فتَضحَك، وإشاعاتٌ قالتْ عنَّا ما لم يَكُن.

وفي الحادي والثَّلاثينَ من أغُسطُسَ رَجَعنا إلى طَنجة. وفي أوَّلِ شُتنبرَ بَدأَتِ الدِّراسة. ووَقَفتُ على شُرفَتي أنظُرُ إلى أضواءِ السَّاحلِ الآخَرِ وأنا مُوقِنةٌ — مُوقِنةً إيقاناً تامَّاً كما تُوقِنُ بِنتٌ في العِشرين — أنَّ حَياتي قد تَغيَّرَتْ إلى الأبَد.

وقد كُنتُ مُحقَّة. غَيرَ أنَّها تَغيَّرَتْ على غَيرِ الوَجْهِ الذي ظَنَنْت، وبَعدَ ثَمانِيَةِ أسابيعَ بالضَّبط.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

سَبْعُ سَنَوَاتٍ عَلَى خَيْط

جاءَتِ المُكالَمةُ في أواخِرِ أكتوبر.

وكان صَوتُه فيها صَوتاً آخَر. ليس حَزيناً ولا باكياً، وإنَّما كان صَوتَ رَجُلٍ يَتكَلَّمُ من مَكانٍ غَيرِ المَكانِ الذي كان يَتكَلَّمُ منه. وقال لي كَلاماً مُجمَلاً عن مَشاكِلَ في الشَّرِكة وعن انتقالِهم إلى حَيٍّ آخَر، وقال إنَّه بخَيرٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ في مُكالَمةٍ واحِدة. ومَن قال لكَ إنَّه بخَيرٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فليس بخَير.

ثمَّ سَمِعتُ الطَّنين. ثمَّ سَمِعتُ قِطعةً نَقديَّةً تَسقُطُ في جَوفِ الآلة.

ولم أقُلْ شَيئاً. قُلتُ له: سَمِعتُك، تابِعْ. فتابَع. ثمَّ انقَطَعَ الخَطُّ في وَسَطِ جُملةٍ لأنَّ القِطَعَ نَفِدَتْ.

فجَلَستُ على طَرَفِ السَّريرِ والهاتِفُ في يَدي، وبَقِيتُ هناك لا أدري كم.

* * *

ولْأقُلْ لك ما لم أقُلْه لأحَد: إنَّ المَرأةَ لا تُحتاجُ إلى أن يُقالَ لها.

ما قال لي أحَدٌ في ذلك الشِّتاءِ إنَّ أباه أفلَسَ وإنَّ البَيتَ حُجِز. وإنَّما كانت القَرائِنُ تَأتي واحِدةً واحِدة، وأنا أرَتِّبُها في صَمتي كما تُرَتَّبُ قِطَعُ لُعبةٍ على طاوِلة.

صارَ يَتَّصِلُ من هاتِفٍ عُمومِيٍّ لا من بَيت، وصارَ في خَلْفِ صَوتِه ضَجيجُ شارِعٍ ودَرَّاجاتٍ وأطفال. وصارَ يَصِلُ إلى طَنجةَ في الفَجْرِ لا في الظَّهيرة، فعَرَفتُ أنَّه جاءَ في الحافِلةِ اللَّيليَّة. ورأيتُ مِعطَفَه ثَلاثةَ شُتاءاتٍ هو نَفسُه، وقد صارَ في مِرفَقِه لَمعانٌ خَفيف. ورأيتُ يَدَيه وقد

صارَ تَحتَ أظافِرِه صَدَأٌ لا يَخرُجُ بالماءِ وَحدَه. ورَأيتُ ساعةَ المِعصَمِ غائبةً في الرَّبيعِ ولم أسألْ عنها، ثمَّ غائبةً في الخَريفِ ولم أسألْ عنها.

فما سَكَتُّ احتقاراً، واللهِ. ولا سَكَتُّ حَياءً منه. سَكَتُّ لأنّي كُنتُ أخافُ أن أُهينَه بالشَّفَقة.

إنَّ الشَّفَقةَ، أيُّها القارئ، أرَقُّ أسماءِ الإهانةِ وأخبَثُها. تَقولينَ للرَّجُلِ: أعرِفُ حالَك، فتَكونينَ قد نَقَلتِه من مَرتَبةِ الرَّجُلِ إلى مَرتَبةِ الحالة. وكان في يَدي أن أفعَلَ ذلك في أيَّةِ لَحظةٍ من تلك السَّبعِ سَنَوات، بجُملةٍ واحِدة. فما فَعَلتُ. وأحسِبُ هذا أنظَفَ شَيءٍ صَنَعتُه في عُمري.

* * *

على أنّي عَرَضتُ عليه العَوْنَ مَرَّتَين.

في المَرَّةِ الأولى، وكان في شتاءِ سَنةِ ألفَينِ وواحد، أخرَجتُ له مَغلَّفاً وقُلتُ كَلاماً كَثيراً حَضَّرتُه في اللَّيلِ عن أنَّه قَرضٌ وعن أنَّه سيُعيدُه. فنَظَرَ إلى المَغلَّفِ ولم يَمُدَّ يَدَه، ثمَّ رَفَعَ عَينَيه إليَّ ورَأيتُ في وَجْهِه شَيئاً لم أرَه فيه قَبْلَ ذلك اليَومِ: شَيئاً يُشبِهُ الخَوفَ وشَيئاً يُشبِهُ الغَضَبَ ولا هو هذا ولا ذاك.

وفي المَرَّةِ الثّانية، بَعدَها بسَنَتَين، لم أُخرِجْ مَغلَّفاً وإنَّما ذَكَرتُ له عَمَلاً في مَكتَبِ أبي. فقامَ من الكُرسيِّ وخَرَجَ من المَقهى.

ولَحقتُه وبَكَيتُ في الشَّارِع، وهو واقفٌ لا يَنظُرُ إليَّ ويَقولُ كَلاماً لا أتَبَيَّنُه. وفي آخرِ الأمرِ قال جُملةً واحِدةً صافِيةً: «أنا الشَّيءُ الوَحيدُ الذي أملِكُه أن أدفَعَ أنا».

فما عُدتُ.

ومَرَّةً واحِدةً في سَبعِ سَنَوات، في مَقهًى في شارِعِ باستور، سَبَقَتْ يَدي يَدَه إلى الحِساب. ولم تَكُنْ عن قَصْد، وإنَّما كانت حَرَكةً من حَرَكاتِ النِّساءِ في بُيوتِنا، نَدفَعُ قَبْلَ الرِّجالِ لِنَستُرَهم لا لِنُعَيِّرَهم. فرَأيتُ وَجهَه في تلك الثّانيةِ فتَمَنَّيتُ أن تُشَلَّ يَدي.

ولم أُعدْها أبَداً. وصارَ آخرُ ما بَقيَ له في الدُّنيا أن يَدفَعَ هو، فكُنتُ أترُكُه يَدفَعُ ثَمَنَ قَهوَتَينِ وأنا أعلَمُ أنَّهما أجْرُ ساعتَينِ من حَمْلِ الحَديد.

* * *

وأمَّا في بَيتِنا، فإنِّي كَتَمتُ الأمرَ كِتماناً كاملاً.

ولم يَكُنْ ذلك لأنِّي أستَحي به، فأنا أقولُ أمامَ اللهِ إنِّي ما استَحيَيتُ به يَوماً وأنا امرأةٌ تُحسِنُ أن تَستَحي. إنَّما كَتَمتُه لأنِّي كُنتُ أعرِفُ ما يَجري إذا قُلت. ما كانوا سيَضرِبونَني ولا يَحبسونَني، فما نَحنُ من أهلِ ذلك. كان أبي سيَسألُ ثَلاثةَ أسئلة عن الاسمِ والأصلِ والمِهنة، ثمَّ يَتَّصِلُ بمَعارِفه في الدَّارِ البَيضاءِ ويَعرِفُ كُلَّ شَيءٍ في ثَمانيَ عشْرةَ ساعة، ثمَّ يَطوي الجَريدةَ على رُكبتِه ويَقولُ جُملةً من ثَلاثِ كَلِماتٍ تُنهي الأمرَ إنهاءً لا يُستَأنَف.

فكان سُكوتي حِمايةً للعَلاقةِ لا إخفاءً للرَّجُل. وهذا فَرْقٌ لا يَراه مَن لم يَعِشْ في بُيوتِنا.

ورَفَضتُ في تلك السَّنَواتِ ثَلاثةَ طالبينَ للزَّواج، وكُلُّهم مِمَّن يُقالُ فيه «لا يُرَدّ». ورَفَضتُ بلا سَبَبٍ أقولُه، وهذا أصعَبُ أنواعِ الرَّفْضِ في عائلةٍ مِثلِ عائلتي. ومَرَّتْ عليَّ شُهورٌ لا تُكَلِّمُني فيها أُمِّي إلَّا بالضَّرورة، وأعيادٌ أجلسُ فيها وَسْطَ النِّساءِ أسمَعُ الكَلامَ المُوَجَّهَ إليَّ وهو غَيرُ مُوَجَّهٍ إليَّ. ومَرَّةً قالتْ لي خالَتي، بصَوتٍ تَسمَعُه القاعةُ كُلُّها: «الجَميلةُ التي تَنتَظِرُ، تَنتَظِرُ وَحدَها».

واحتَمَلتُ ذلك سَبعَ سَنَواتٍ من أجلِ رَجُلٍ يَأتي كلَّ شَهرَينِ في الحافِلةِ اللَّيليَّةِ ويَجلِسُ معي ساعتَينِ في مَقهًى ويَرجِع.

فمَن أرادَ أن يُحاسِبَني، فلْيُحاسِبْني على ما أخطَأتُ فيه حَقّاً؛ وأمَّا على هذه السَّبعِ فأنا أقِفُ بينَ يَدَيْ أيِّ قاضٍ ولا أخافُ.

* * *

وكان في رَسائِلِنا بابٌ ثابتٌ لا تَخلو منه رِسالة: أُمُّه.

لم أرَها قَطّ. ولم أُكَلِّمْها في الهاتف مَرَّةً. ومع ذلك فأنا أعرِفُ أنَّها كانت تُصَفِّي الدَّمَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ في الأسبوع، وأنَّها كانتْ تَخيطُ وهي في الغُرفة لئلَّا تَنسى يَدُها، وأنَّها كانتْ تَسألُه إذا رَجَعَ: أكَلْتَ يا وَلَدي؟ وأعرِفُ لَونَ المِذياعِ الذي كان في تلك الغُرفة، وأنَّ هَوائِيَّه كان مَلفوفاً بورَقٍ فِضِّيٍّ لِيَصطادَ المَوجة.

وكُنتُ أسألُ عنها في كلِّ رِسالةٍ فيُجيبُني بتَفصيل، وكان ذلك أهنَأَ ما في مُكاتَبتِنا؛ فإنَّ الرَّجُلَ الذي يَكذِبُ عليكِ في كلِّ شَيءٍ يَصدُقُ حينَ يُحَدِّثُكِ عن أُمِّه.

فأحبَبتُ امرأةً لم أرَها. وبَكَيتُ عليها بَعدَ ذلك بُكاءً لا يَعرِفُه أحَد.

* * *

وفي شتاء سَنة ألفَين وخَمسةٍ جَلَسنا في مَقهًى على السَّاحِلِ هنا في طَنجة، والرِّيحُ تَضرِبُ الزُّجاجَ ضَرْباً يُسمَعُ.

وكان يَشرَحُ لي صَفقةَ حَديد: أرقاماً وأطناناً واسمَ وَرْشٍ في عَينِ السَّبْع. وكان يَشرَحُ بتَفصيلٍ شَديدٍ لا يَكونُ إلَّا في كَلامٍ مُحضَّر، ويَنظُرُ إلى الطَّاولةِ وهو يَشرَح.

فنَظَرتُ إلى البَحْرِ وقُلتُ له: «أنا لا أسألُك عن الحَديد».

خَمسُ كَلمات. ولم أزِدْ عليها. ولم أُرِدْ بها أن أكشفَه ولا أن أُعَيِّرَه ولا أن أُفاوِضَه على الصِّدق. أرَدتُ شَيئاً واحداً: أن أُريحَه من التَّعَب. فإنَّ الكَذِبَ على مَن تُحِبُّ عَمَلٌ شاقٌّ يَأخُذُ من الرَّجُلِ أكثَرَ مِمَّا تَأخُذُ المَصانِع، وكُنتُ أراه يَتعَبُ أمامي كلَّ شَهرَينِ ولا أستَطيعُ أن أحمِلَ عنه.

فسَكَتَ طَويلاً. ثمَّ مَدَّ يَدَه وأخَذَ يَدي ووَضَعَها على الطَّاولةِ بينَ كَفَّيه، ونَظَرَ إلى الزُّجاجِ ولم يَقُلْ شَيئاً.

وذلك كان آخِرَ شِتاءٍ طَبيعيٍّ في حَياتي. وما كُنتُ أدري.

الفَصْلُ الخَامِسُ

قَاعَةُ الزِّيَارَة

في الثَّالِثَ عَشَرَ من مارسَ سَنَةَ ألفَينِ وستَّةٍ لم يَتَّصِل.

ولم يَكُنْ في ذلك ما يُخيف؛ فقد تَأخَّرَ قَبْلَ ذلك أُسبوعاً ومَرَّةً عَشْرةَ أيَّام. غَيرَ أنَّ الأُسبوعَ مَضى، ثمَّ الثَّاني. فطَلَبتُ أنا الرَّقَمَ الذي كان يُعطيني إيَّاه للضَّرورة، رَقَمَ دُكَّانٍ في أوَّلِ الزُّقاق.

فرَدَّ صَوتٌ غَريبٌ وسَألتُ عنه باسمه، فسَكَتَ الرَّجُلُ سَكتةً قَصيرةً ثمَّ قال: «ليس هنا». قُلتُ: ومتى يَعود؟ فقال: «اللهُ يُعين». ثمَّ أغلَق.

وأنا امرأةٌ تَفهَمُ. «اللهُ يُعاوِن» لا تُقالُ لِمَن سافَر.

* * *

وبَعدَ أربَعةِ أيَّامٍ دَخَلَ عليَّ أبي.

كان ذلك بَعدَ العَصْر، في الغُرفةِ التي كانتْ فيها خِزانةُ الكُتُب. دَخَلَ وأغلَقَ البابَ، وهذا شَيءٌ لم يَفعَلْه في عُمرِه؛ فإنَّ الأبوابَ في بُيوتِنا تُترَكُ مَفتوحةً دائماً، وإغلاقُها كَلامٌ قَبْلَ الكَلام.

وجَلَسَ على الكُرسيِّ المُقابِلِ ومَعه وَرَقَةٌ مَطويَّة.

ولم يَصِحْ. ولم يَسألْني سُؤالاً واحِداً. ولم يَقُلْ: مَن هو، ولا: من متى، ولا: كيفَ فَعَلتِ هذا بنا.

وضَعَ الوَرَقَةَ على الطَّاولةِ بَيني وبَينَه ولم يَفتَحْها، ثمَّ قال:

«أعرِفُ هذا الوَلَدَ منذ أربَعِ سَنَوات، يا نَوال. وأعرِفُ ماذا كان أبوه وماذا صارَ، وأعرِفُ من أيِّ زُقاقٍ يَتَّصِلُ بكِ وفي أيِّ حافِلةٍ يَجيء. وقد سَكَتُّ أربَعَ سَنَوات».

فلم أستَطِعْ أن أتكَلَّم.

قال: «وسَكَتُّ لأنَّني كُنتُ أنتَظِرُ أن تَكبُري فتَرَي أنتِ ما أراه أنا. أمَّا الآن فقد انتَهى الأمرُ، ولم أُنْهِه أنا. انتَهى وَحدَه».

ثمَّ قامَ ووَقَفَ عِندَ البابِ ويَدُه على المِقبَضِ وقال، بصَوتٍ أهدَأَ من الأوَّل:

«هذا الرَّجُلُ لن يَخرُجَ قَبْلَ أن تَبلُغي الثَّلاثين. وأنا لا أستَعجِلُك».

وخَرَج.

ولم يَرفَعْ صَوتَه. وهذا أسوأُ ما في الأمر. فإنَّ الصَّوتَ العالِيَ يُقاوَمُ ويُبكى منه ويُنْسى؛ وأمَّا الرَّجُلُ الذي يَعرِفُ ويَصبِرُ وينتَظِرُ أن يَتعَبَ خَصمُه، فذاك لا يُترَكُ له جَواب. وقد فَهِمتُ في تلك الدَّقيقةِ أنَّ أبي أقوى من الحُبّ، وأنَّه أقوى منه لا بالقَسوةِ وإنَّما بالوَقْت.

ولم أفتَحِ الوَرَقةَ. بَقِيَتْ على الطَّاولةِ أربَعةَ أيَّامٍ ثمَّ رَفَعَتْها أُمِّي مع الغُبار.

* * *

وفي يوليوزَ قَرَّرتُ أن أذهَب.

ولا أعرِفُ إلى اليَومِ كيف قَرَّرتُ ولا من أين جاءَني ذلك. سألتُ بنتَ صاحبةٍ لي يَعمَلُ أخوها في مَحكَمةِ هناك، وسألتُ وأنا أدورُ حَولَ السُّؤالِ دَوَراناً حتَّى صارَ مَفهوماً. فقالتْ لي ما لم أكُنْ أعرِفُه: إنَّ الزِّيارةَ تُقبَلُ من غَيرِ القَريب، وإنَّ الأمرَ لا يَقتَصِرُ على حامِلِ الكُنْيةِ نَفسِها، وإنَّ ما يُطلَبُ هو البِطاقةُ واسمُ السَّجين.

وهذه هي العبارةُ التي قَلَبَتْ حَياتي: «لا يَقتَصِرُ على حامِلِ الكُنْيةِ نَفسِها». فقد كُنتُ أحسِبُ أنَّ الأمرَ مُستَحيلٌ من أصلِه، وأنَّ بَيني وبَينَه قانوناً. وتَبَيَّنَ لي أنَّ ما بَيني وبَينَه ليس قانوناً، وإنَّما أنا.

فأخَذتُ من مالي، وقُلتُ في البَيت إنِّي ذاهبةٌ إلى الدَّارِ البَيضاءِ مع صاحبةٍ لي في شأنٍ من شُؤونِ الجامعة، وركِبتُ حافلةَ الخامسةِ صَباحاً.

وكان ذلك أوَّلَ سَفَرٍ في عُمري وَحدي. ستٌّ وعِشرونَ سَنةً ولم أُسافِرْ وَحدي، وأنا التي عَبَرَتِ البَحرَ إلى إسبانيا عِشرينَ مَرَّة.

* * *

وأمَّا ذلك المَكانُ فإنِّي لن أُطيلَ في وَصْفِه، لأنَّ ما رَأيتُه فيه ليس لي وَحدي.

سُورٌ طَويلٌ أصفَر. ونِساءٌ كَثيراتٌ جالِساتٌ على الأرضِ منذ الفَجْرِ ومَعهُنَّ أكياسٌ وأطفالٌ وقَواريرُ ماء. وطابورٌ طَويلٌ في الشَّمس. واشتَرَيتُ في الطَّريقِ كيساً من البُرتُقالِ والتُّفَّاحِ ولم يُسمَحْ بإدخالِه، فأعطَيتُه لامرأةٍ عِندَ البابِ ولا أدري ماذا فَعَلَتْ به.

وبَقيتُ في الطَّابورِ ثَلاثَ ساعات. وكُنتُ الوَحيدةَ هناك في معطَفٍ كُحْليٍّ نَظيفٍ وحِذاءٍ لا يُشبِهُ أحذيةَ ذلك الصَّفّ، فنَظَرتُ إليَّ النِّساءُ نَظرةً لا أُلومُهُنَّ عليها، وسَأَلَتْني واحِدةٌ: «أخوك؟» فقُلتُ: نَعَم.

وهذه أوَّلُ مَرَّةٍ في عُمري أُنكِرُه. وقد أنكَرتُه بكَلِمةٍ واحدةٍ عندَ بابِ سِجْنٍ بَعدَ أن احتَمَلتُ من أجلِه سَبعَ سَنَوات. فاحكُمْ عليَّ بما شِئت، فأنا أحكُمُ على نَفسي بأشَدَّ منه.

* * *

ثمَّ دَخَلتُ القاعة.

ولا أستَطيعُ أن أصِفَ لك الصَّوت. أربَعونَ عائلةً في مَكانٍ واحد تَتكَلَّمُ كُلُّها في وَقتٍ واحد، كُلُّ أُسرةٍ تَصرُخُ لِتُسمِعَ ابنَها وهو يَصرُخُ لِيُسمِعَها، وأطفالٌ يَبكون، وشُبَّاكٌ طَويلٌ فيه زُجاجٌ قَديمٌ مَخدوشٌ وشَبَكَةٌ مَعدنيَّة، والهَواءُ ثَقيلٌ فيه عَرَقٌ ومُطَهِّر. ودَخَلَت النِّساءُ أمامي فعَرَفَ كُلٌّ مِنهُنَّ مَوضِعَه كأنَّهُنَّ في بَيتِهِنَّ، وبَقيتُ أنا واقِفةً في الوَسَطِ لا أعرِفُ أين أقِف.

ثمَّ رَأيتُه.

رَأيتُه على بُعدِ أربَعةِ أمتارٍ أو خَمسة، في الجِهةِ الأُخرى من الزُّجاج.

كان قَصيرَ الشَّعرِ جداً، وأعرَضَ قَليلاً مِمَّا كان، وفي وَجْهِه شَيءٌ قد مَضى عليه الحَديدُ ومَرَّ. وكان حَيّاً. هذه أوَّلُ فِكرةٍ جاءَتْني، وأستَغفِرُ اللهَ: هو حَيٌّ. ثمَّ جاءَتِ الثَّانية: هو هُو.

وكان مَعه شابٌّ.

شابٌّ نَحيفٌ في الخامسة والعشرينَ أو نَحوها، على رَأسه قُبَّعةٌ، وفي يَده كُرَّاسٌ وقَلَم. وكان مُلتَصقاً بالشَّبَكة يُكَلِّمُه ويَستَمِعُ ثمَّ يَكتُب، ثمَّ يَرفَعُ رَأسَه ويَسألُ شَيئاً فيُجيبُه طه فيَكتُبُ ثانيَة. وكانا يَضحَكانِ مَرَّةً وَسْطَ ذلك كُلِّه.

ولم أعرِفْ مَن هو. وعَرَفتُ بَعدَ سَنَواتٍ طَويلةٍ أنَّه كان صاحِبَه.

* * *

وسَمِعتُ صَوتَه.

سَمِعتُه من بينِ أربَعينَ صَوتاً، وما عَرَفتُ كيف وَصَلَ إليَّ. قال كَلِمةً فيها حَرْفُ الحاءِ ومَدَّ آخِرَها كما كان يَمُدُّ.

وفَتَحتُ فَمي.

واللهِ إنِّي فَتَحتُه. فَتَحتُه لأقولَ اسمَه فقط، كَلِمةً واحدةً من ثَلاثة أحرُفٍ كانت تَكفي؛ كان يَلتَفِتُ ويَراني ويَنتَهي الأمرُ، وتَكونُ حَياتي كُلُّها قد صارَتْ شَيئاً آخَر.

فلم يَخرُجْ مِنه شَيء.

ولا أقولُ لك إنَّ الخَوفَ هو الذي مَنَعَني، فما كُنتُ أخافُ من أحَدٍ في تلك القاعة. وإنَّما جَرى لي شَيءٌ آخَرُ عَرَفتُه في تلك الثَّانيةِ بالذَّاتِ وأنا أنظُرُ إلى وَجْهِه: عَرَفتُ أنِّي لا أملِكُ ما أقول.

فماذا كُنتُ سأقولُ له؟ أقولُ: أنتَظِرُك؟ وأنا بنتُ البَقَّالي وعُمري ستٌّ وعشرون، ولا أملكُ من أمري شَيئاً، ولا أستَطيعُ أن أعِدَه بسَبْعِ سَنَوات؛ ومَن وَعَدَ بما لا يُقدَرُ عليه فقد كَذَبَ كَذبةً أقسى من كُلِّ كَذِباتِ الحَديد. أو أقولُ له: سَلامٌ عليك؟ فتلك كَلِمةُ ختامٍ تُقالُ لرَجُلٍ خَلفَ شَبَكةٍ مَعدنيَّة.

فبينَ وَعْدٍ لا أملِكُه ووَداعٍ لا أقدِرُ عليه، لم يَبْقَ لي غَيرُ الصَّمت.

وتَقدَّمتُ خُطوةً. ثمَّ دَفَعَتْني امرأةٌ وَراءَها طِفلانِ فتَأخَّرتُ. وتَقدَّمتُ ثانِيَةً فوَقَفتُ.

ثمَّ رَنَّ جَرَسٌ وصاحَ رَجُلٌ بانتهاءِ الوَقْت، فقامَ كُلُّ مَن في الجِهةِ الأُخرى وصارَ الصُّراخُ أعلى، والنِّساءُ تَرفَعُ الأطفالَ لِيَروْا آخِرَ مَرَّة.

وقامَ هو. ومَرَّ على أربَعةِ أمتارٍ منِّي. ولم يَرَني.

فإنَّ عَينَ الرَّجُلِ في ذلك المَكانِ لا تَرى النَّاسَ؛ إنَّما تَرى البابَ الذي يُؤخَذُ إليه.

* * *

وخَرَجتُ.

وجَلَستُ على رَصيفٍ في شارِعٍ لا أعرِفُ اسمَه قَريباً من ساعة ولم أبْكِ. ثمَّ رَكِبتُ حافِلةَ الخامسةِ مَساءً إلى طَنجة، ووَصَلتُ في مُنتَصَفِ اللَّيل، ودَخَلتُ البَيتَ ودَخَلتُ الحَمَّامَ وفَتَحتُ الماءَ على آخِرِه وبَكَيتُ تَحتَه.

وفي الصَّباحِ سألتْني أُمِّي: كيف كان سَفَرُك؟

فقُلتُ: على خَير.

ولم أُخبِرْ أحَداً في الدُّنيا بهذه الرِّحلة. لا أُمِّي، ولا صاحِبَتِي، ولا عادِل في ثَمانِيَ عشْرةَ سَنةً من الزَّواج، ولا بِنتي وهي أقرَبُ النَّاسِ إليَّ.

وهذه أوَّلُ مَرَّةٍ تُقال.

الفَصْلُ السَّادِسُ

سَنَواتُ السُّؤَال

تَزَوَّجتُ في صَيفِ سَنةِ ألفَينِ وثَمانيةٍ، وأنا في الثَّامنةِ والعِشرين.

ولم يُجبِرْني أحَد. أقولُها لأنَّها الحَقيقة، ولأنِّي أعرفُ أنَّ القارئَ يُريدُ أباً ظالماً وزَوجاً قاسياً وبِنتاً تُساقُ إلى عَقْدٍ وهي تَبكي؛ فتَكونُ الحِكايةُ مُريحةً ويَكونُ الذَّنْبُ مَعروفَ العُنوان. وما كان شَيءٌ من ذلك. قيلَ لي، ووافَقتُ أنا.

وافَقتُ بَعدَ سَنَتَينِ من الانتظارِ الذي لا يُنتَظَرُ فيه شَيءٌ مَعلوم، وبَعدَ أن بَلَغتُ من التَّعَبِ ما لا يَعرِفُه إلَّا مَن عاشَ في بَيتٍ تُسألُ فيه كلَّ أُسبوعٍ سُؤالاً واحداً بعشرينَ صِياغة. ووافَقتُ وأنا أقولُ لنَفسي كَلاماً مَعقولاً لا عَيبَ في مَنطقه: إنَّه رَجُلٌ صالِح، وإنَّ العُمرَ يَمضي، وإنَّ ما مَضى لن يَعود، وإنَّ المَرأةَ لا تَبني حَياتَها على رَجُلٍ لا تَعرِفُ أحَيٌّ هو أم مَيِّت.

وكُلُّ هذا الكَلامِ صَحيح. وقد عِشتُ ثَمانيَ عشْرةَ سَنةً أُحاوِلُ أن أُصَدِّقَه.

* * *

وعادِلُ رَجُلٌ لا يُعابُ في شَيء.

وهذه، إن أرَدتَ الحَقَّ، هي المُشكلةُ كُلُّها. فإنَّ المَرأةَ إذا تَزَوَّجَتْ رَجُلاً ظالماً وَجَدَتْ لحَسرَتِها باباً تَخرُجُ منه، وصارَ لها حَقٌّ تُطالِبُ به وشَكوى تَبُثُّها إلى أُمِّها. وأمَّا التي تَتزَوَّجُ رَجُلاً صالحاً وهي لا تُحِبُّه حُبّاً تامّاً، فإنَّها تَبقى سِنينَ تُحاسِبُ نَفسَها وَحدَها، إذ لا تَجِدُ في بَيتِها شَيئاً تَشكوه.

لم يَرفَعْ عليَّ صَوتَه ثَمانيَ عشْرةَ سَنة. ولم يُقَصِّرْ في دِرهَمٍ ولا في واجِب. وكان في اللَّيلة التي وَلَدتُ فيها ياسينَ واقفاً في المَمرِّ من الثَّالثة إلى السَّابعة. وكان يَأتيني في مَرَضي بالدَّواءِ قَبْلَ أن أطلُبَه. وربَّى وَلَدَيه تَربيةً حَسَنة.

فماذا أقولُ لِلَّه يومَ القِيامةِ عن قَلبٍ كان في بَيتِ هذا الرَّجُلِ ولم يَكُنْ كُلُّه له؟

هذا سُؤالٌ حَمَلتُه ثَمانيَ عشْرةَ سَنةً ولم أجِدْ له جَواباً عِندَ أحَد.

* * *

وأمَّا طه فقد انقَطَعَ انقِطاعاً تامّاً.

لا رِسالة. ولا رَقَمَ يَعمَل. ولا خَبَرَ من ثِقة. انقَطَعَ في مارسَ سَنةَ ألفَينِ وستَّةٍ وما جاءَني منه حَرْفٌ واحِدٌ بَعدَ ذلك اليَوم.

على أنِّي عَلِمتُ منه خَبَراً واحِداً بَعدَ انقِطاعِه، وجاءَني من حَيثُ جاءَني الخَبَرُ الأوَّل.

فإنِّي طَلَبتُ رَقَمَ ذلك الدُّكَّان مَرَّةً أُخرى في رَبيعِ سَنةِ ألفَينِ وسَبعة، بَعدَ سَنةٍ من انقِطاعِه، وسألتُ عنه فرَدَّ الرَّجُلُ نَفسُه. ولم يَقُلْ لِي عنه شَيئاً. وإنَّما قال، وهو يُكَلِّمُ شَخصاً آخَرَ في الدُّكَّانِ في الوَقتِ نَفسِه: «اللهُ يَرحَمُ والِدَتَه». ثمَّ أغلَق.

فجَلَستُ في مَكاني ساعةً لا أتَحَرَّك. ثمَّ دَخَلتُ الحَمَّامَ وفَتَحتُ الماءَ على آخِرِه.

وبَكَيتُ عليها كما تَبكي الكَنَّةُ على حَماتِها، وأنا لم أكُنْ كَنَّتَها ولا رَأيتُها، ولم أعرِفْ في أيِّ مَقبَرةٍ دُفِنَتْ إلَّا بَعدَ تِسعةَ عَشَرَ عاماً.

ولِمَن لم يُجَرِّبْ هذا أقولُ: إنَّ الفَقْدَ الذي لا جُنازةَ له أثقَلُ من المَوت.

فالمَيِّتُ له تاريخٌ وقَبْرٌ وثَلاثةُ أيّامٍ تَجلسُ فيها النِّساءُ معك، ثمَّ يُسَلِّمُ الإنسانُ ويَمضي. وأمَّا الغائبُ فإنَّه لا يَموتُ ولا يَعيش. يَبقى في زاويةٍ من رَأسك على هَيئة سُؤالٍ لا يُغلَق، فتَمُرُّ عليك عَشْرُ سَنَواتٍ وأنتِ في كلِّ واحدةٍ منها تَسألينَ السُّؤالَ نَفسَه من أوَّله.

وأسئلَتي كانت هذه، وأعَدتُها على نَفسي آلافَ المَرَّات في أماكنَ لا يَخطُرُ لك أنَّ النِّساءَ تُفكِّرُ فيها: في المَطبَخِ وأنا أُقَشِّرُ، وفي سَيَّارةِ الأُجرة، وفي حَفَلاتِ الأعراسِ والمُوسيقى عالية، وفي صَلاةِ العِشاءِ وأستَغفرُ اللهَ.

أخَرَجَ أم ما زالَ هناك؟ وإن خَرَجَ، فأينَ ذَهَب؟ وهل سَأَلَ عَنِّي؟ وإن سَأَلَ فمَن أجابَه، وبماذا أجابَه؟ وهل قالوا له إنَّها تَزَوَّجَتْ قَبْلَ أن تَسألَ عنك؟ وهل عَلِمَ أنِّي جئتُ إلى تلك القاعةِ ووَقَفتُ على أربَعةِ أمتارٍ منه؟ وهل رَآني وأنكَرَني؟ ولو رَآني وأنكَرَني فذلك حَقُّه.

وأقسى سُؤالٍ من هذه كُلِّها، وهو الذي كان يَجيئُني في آخرِ اللَّيل: هل كان يَنتَظِرُني؟ هل جَلَسَ هناك سَنَواتٍ يَحسبُ أنَّ امرأةً في طَنجةَ تَحفَظُ له العَهْد، وهي في تلك السَّنَواتِ بالذَّاتِ تُحَضِّرُ جِهازَها وتَختارُ لَونَ الصَّالون؟

* * *

ومَرَّةً واحِدةً، في سَنةِ ألفَينِ وأحَدَ عَشَر، نَزَلنا إلى الدَّارِ البَيضاءِ في عُرْسٍ لأحَدِ أقاربِ عادِل.

وكُنَّا في سَيَّارةِ أُجرةٍ تَمُرُّ في طَريقٍ طَويلٍ عندَ المَغرِب، وأنا بجانبِ زَوجي وفي حِجري ياسينُ وهو طِفلٌ في الثَّانية. وكانتِ السَّيَّارةُ تَمُرُّ على زَوايا وأزِقَّةٍ وأضواءٍ ودَكاكينَ مَفتوحةٍ ورِجالٍ واقِفينَ على الأرصِفة.

وبَقيتُ أنظُرُ من النَّافذةِ تلكَ الطَّريقَ كُلَّها. أنظُرُ إلى الزَّوايا. إلى كلِّ زاويةٍ وكلِّ رَجُلٍ واقِفٍ وكلِّ ظَهْرٍ يَبتَعِد.

ثمَّ قال لي عادلُ: «تَعَبتِ؟»

فقُلتُ: قَليلاً.

* * *

وفي سَنةٍ من تلك السَّنَواتِ وَجَدَ شَيئاً.

كُنتُ أحفَظُ أشياءَ قَليلةً في عُلبةٍ من صَفيحٍ في أسفَلِ خزانةٍ قَديمة، وما فيها شَيءٌ يُخجِلُ واللهِ: وَرَقٌ، وتَذكِرةُ حافِلة، وصُورةٌ واحِدةٌ أُخِذَتْ في أغادير على دَرَجٍ حَجَريٍّ ونَحنُ واقِفانِ ولا نَتلامَس.

ورَجَعتُ يَوماً فوَجَدتُ العُلبةَ في مَوضِعِها وقد تَغيَّرَ شَيءٌ صَغيرٌ في ترتيبِ ما فَوقَها. والنِّساءُ تَعرِفُ هذا.

ونَظَرتُ إليه في المَساءِ فنَظَرَ إليَّ، ثمَّ سَألَني عن دَرْسِ سَلمى.

ولم يَتكَلَّمْ في ذلك قَطّ. لا في تلك اللَّيلة ولا بَعدَها بثَمانيَ عشْرةَ سَنة. ولا مَرَّةً واحِدةً في خِصامٍ أو في تَعَبٍ أو في لَحظةِ ضَعْفٍ من لَحظاتِ البَشَرِ استَعمَلَ ذلك ضِدِّي.

وهذا، أيُّها القارئ، أثقَلُ شَيءٍ حَمَلتُه في عُمري.

فإنَّ الرَّجُلَ لو صاحَ وأخرَجَ العُلبةَ ورَماها أمامي لَكُنَّا بَكَينا وتَشاجَرْنا وانتَهى الأمرُ، ولَصِرتُ بَعدَها حُرَّةً من دَيْنٍ ما. وأمَّا أن يَعلَمَ ويَسكُتَ ويُحسِنَ إليَّ ثَمانيَ عشْرةَ سَنة، فتلك مُسامَحةٌ لم أطلُبْها ولم أُسَدِّدْ ثَمَنَها؛ ولا شَيءَ أثقَلُ على ظَهْرِ الإنسانِ من كَرَمٍ لا يُطالَبُ به.

* * *

ومَضَتِ السَّنَوات.

مات أبي في سَنة ألفَين وسَبعةَ عَشَر، ولم أُعاتبْه ولم أُسامحْه؛ إنَّما جَلَستُ عندَ قَبْرِه وقُلتُ: اللهُ يَرحَمُك يا والدي، ودَعَوتُ له كما يَدعو كُلُّ وَلَدٍ لأبيه. وكَبرَ ياسينُ وكَبرَتْ سَلمى. وتَغيَّرَتْ طَنجةُ تَغَيُّراً لا يُعقَل: صارَ لها ميناءٌ جَديدٌ لا يَراه أحَدٌ من المَرشان، وقطارٌ سَريعٌ يَصِلُ إلى الدَّارِ البَيضاءِ في ساعتَين — ساعتَين، بَعدَ أن كانت الحافلةُ اللَّيليَّةُ عَشْرَ ساعات — وأبراجٌ حيثُ كانتِ البَساتين، ومَصانِعُ ونِساءٌ يَخرُجْنَ إلى العَمَلِ في الفَجْرِ بِمِلاءَاتٍ زُرْقٍ، وبَناتٌ في العِشرينَ يَمشينَ في شارِعِ باستورَ بَعدَ الثَّامنةِ ولا يَسألُهُنَّ أحَد.

فتَغيَّرَ كُلُّ شَيءٍ إلَّا أنا.

وفي كلِّ سَنة من تلك السَّنَوات كُنتُ أعُدُّ شَيئاً واحِداً في سِرِّي، في مارس: هذه السَّنةُ الخامِسة. هذه السَّنةُ العاشِرة. هذه الرَّابِعةَ عَشْرة.

ثمَّ، في صَباحِ ثُلاثاءَ عاديٍّ في نُونبر، سَمِعتُ اسمي في أُغنِيةٍ شَغَّلَها ابني في السَّيَّارة.

الفَصْلُ السَّابِعُ

مَا تَبَقَّى مِنَ المَرْشَان

بَعدَ ذلك بأحَدَ عَشَرَ يَوماً نَزَلتُ إلى الدَّارِ البَيضاء.

قُلتُ في البَيت إنِّي ذاهبةٌ إلى طَبيبةٍ هناك أوصَتْني بها صاحِبَتي، وهذا نصفُ صدْقٍ إذ كُنتُ قد أخَذتُ المَوعِدَ فعْلاً ولم أذهَبْ إليه. وركِبتُ القطارَ السَّريعَ في الثَّامنة، ووَصَلتُ في العاشرة وخَمسِ دَقائق. ساعتانِ وخَمسُ دَقائق. وضَحِكتُ ضحكةً مُرَّةً في مَقعَدي، إذ تَذَكَّرتُ رَجُلاً كان يَقطَعُ هذه المَسافةَ في عَشْرِ ساعاتٍ على مَقعَدٍ لا يَرتَدُّ لِيَجلِسَ معي ساعتَين.

وأخَذتُ سَيَّارةَ أُجرةٍ وقُلتُ للسَّائقِ اسمَ الحَيّ. فنَظَرَ إليَّ في المِرآةِ نَظرةً طَويلةً وقال: «أينَ بالضَّبطِ؟» فقُلتُ اسمَ الزُّقاقِ كما حَفِظتُه من رَسائلَ عُمرُها عِشرونَ سَنة.

* * *

والزُّقاقُ ضَيِّقٌ كما وَصَفَه لي، وأضيَق. والأسلاكُ في السَّماءِ مُتَشابِكةٌ كما وَصَفَها، وأكثَر. وفي كلِّ زُقاقٍ دُكَّانٌ ومَسجِدٌ ومَقهًى. والجُدرانُ لَونُها ذلك اللَّونُ الذي لا اسمَ له في اللُّغاتِ التي أُتَرجِمُ منها.

ونَزَلتُ ومَشَيتُ. امرأةٌ في السَّادسة والأربَعينَ في معطَفٍ كُحْلِيٍّ تَمشي في زُقاقٍ في مولاي رشيد، فنَظَرَ إليها الصِّغارُ ونَظَرَت النِّساءُ من النَّوافذ. ومَرَرتُ على بِناية ذات ثَلاثةِ طَوابِقَ لها دَرَجٌ خارِجيٌّ، فعَرَفتُها من غَيرِ أن يَدُلَّني أحَد، إذ كُنتُ قد عَرَفتُ عَدَدَ الدَّرَجاتِ من رِسالةٍ كَتَبَها لي في سَنةِ ألفَين وثَلاثةٍ ذَكَرَ فيها أنَّه يَحمِلُ أُمَّه عليها.

ووَقَفتُ تَحتَها ولم أصعَد.

ثمَّ وَجَدتُ الكَراجَ في زُقاقٍ خَلفيّ. وقد صارَ مَحَلَّ إصلاحِ دَرَّاجات، وفيه رَجُلٌ في الخَمسينَ ويَداه سَوداوان من الزَّيت. سألتُه، فقال إنَّه استَأجرَ المَكانَ منذ سَنَوات، وإنَّه لا يَعرِفُ من كان فيه قَبْلَه، ولم يَرفَعْ رَأسَه كَثيراً.

* * *

وعِندَ الزَّاوِيةِ وَجَدتُ وَلَداً.

عُمرُه سَبعةَ عَشَرَ أو ثَمانيَةَ عَشَر، عليه قُبَّعةٌ سَوداءُ وسِرْوالٌ واسِعٌ وسِلسلة، يُمسِكُ هاتِفَه بيَدٍ ويُدَخِّنُ بالأُخرى، ويُهَزِّزُ رُكبتَه ذلك التَّهزيزَ الذي أعرِفُ الآنَ أنَّه تَهزيزُ المُنتَظِر.

سَلَّمتُ عليه فرَدَّ ونَظَرَ إلى حِذائي. ثمَّ سألتُه عن طه.

فرَفَعَ رأسَه ونَظَرَ إليَّ نَظرةً نِصفُها حِذْرٌ ونِصفُها فَخْرٌ بأنَّه يُسأَل، وقال: «طه؟ مَشَى».

قُلتُ: إلى أين؟

فرَفَعَ كَتِفَيه رَفْعاً واحِداً، وعادَ إلى هاتِفِه.

وسألتُ في ذلك اليَومِ ثَلاثةً غَيرَه، فجاءَتْني ثَلاثُ رِواياتٍ لا تَتَّفِقُ على شَيء: قال قائلٌ إنَّه رَكِبَ البَحرَ مَرَّةً ثانيةً وإنَّه في جَزيرةٍ وَسْطَ المُتوَسِّط. وقال قائلٌ إنَّه في الدَّاخِلِ وإنَّ أهلَ الزُّقاقِ يَكتُمونَ ذلك. وقال قائلٌ إنَّه في مِكناسَ في غُرفةٍ لا يَخرُجُ منها إلَّا للصَّلاةِ وإنَّه قد تاب.

بَحْرٌ وسِجْنٌ وتَوبة. وما في الزُّقاقِ من يُرَجِّح.

* * *

ثمَّ ذَهَبتُ إلى المَقبَرة.

ولم أكُنْ قد عَزَمتُ على ذلك حينَ رَكِبتُ القِطارَ في الصَّباح. وإنَّما سألتُ امرأةً في الزُّقاقِ عن مَقبَرةِ الحَيِّ فدَلَّتْني، وأخَذتُ سَيَّارةَ أُجرةٍ وذَهَبت. وسألتُ عِندَ البابِ عن اسمِ امرأةٍ ماتَتْ

في فَبراير سَنةَ ألفَين وسَبعة، فنَظَرَ إليَّ الرَّجُلُ وقال إنَّ هذا بَعيدٌ وإنَّ الدَّفاترَ قَديمة. ثمَّ دَعا وَلَداً يَعمَلُ هناك وأعطاني إليه.

ووَجَدناه في الصَّفِّ الحادي عَشَر. حَجَرٌ أبيَضُ صَغيرٌ عليه اسمُها وتاريخٌ واحِد، وقد نَبَتَ في طَرَفِه عُشْبٌ أصفَرُ.

ووَقَفتُ.

ووَقَفتُ هناك أمامَ امرأة لم أرَها قَطُّ في حَياتي، وأنا أعرِفُ لَونَ المذياعِ الذي كان في غُرفَتِها، وأعرِفُ أنَّها كانتْ تُصَفِّي الدَّمَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ في الأسبوع، وأعرِفُ أنَّها كانتْ تَخيطُ لئلَّا تَنسى يَدُها، وأعرِفُ أنَّها كانتْ تَسألُ ابنَها إذا رَجَع: أكَلْتَ يا وَلَدي؟

فقَرَأتُ الفاتِحة. ثمَّ قَرَأتُها ثانيَة.

وقُلتُ لها كَلاماً لم أقُلْه لأحَدٍ من الأحياء، قُلتُه في قَلبي ولم أُحَرِّكْ شَفَتَيَّ، ولا أُحِبُّ أن أكتُبَه هنا. غَيرَ أنِّي أذكُرُ منه جُملةً واحِدةً: «كُنتُ أُريدُ أن أخدمَك، وما أذِنوا لي».

ثمَّ أعطَيتُ الوَلَدَ ما كان مَعي، وطَلَبتُ منه أن يَنظُرَ إلى الحَجَرِ من حينٍ إلى حين.

وبَكَيتُ في سَيَّارةِ الأُجرةِ من المَقبَرةِ إلى المَحَطَّة، بُكاءً طَويلاً مُتَّصِلاً لم أبكِه منذ سَبعةَ عَشَرَ عاماً، والسَّائقُ يَنظُرُ إليَّ في المِرآة ولا يَقولُ شَيئاً، وقد أدارَ المِذياعَ على القُرآنِ من غَيرِ أن أطلُب. وأحسِبُ أنَّ ذلك الرَّجُلَ أرفَعُ مَن قابَلتُه في ذلك اليَوم.

* * *

وفي المَحَطَّةِ بَقِيَتْ لي سبعٌ وأربَعونَ دَقيقةً إلى مَوعِدِ القِطار.

فجَلَستُ على مَقعَدٍ من حَديدٍ أمامَ لَوحةِ المَواعيد، وأخرَجتُ هاتِفي.

وفي هاتِفي رَقَمٌ.

رَقَمٌ لم أُسَجِّلْه قَطُّ باسمٍ، وإنَّما حَفظتُه عَن ظَهْرِ قَلْبٍ في سَنة ألفَين وأربَعة وما نَسيتُه؛ وهو رَقَمٌ قَديمٌ من تلك الأرقامِ التي صارَتْ تُزادُ فيها خانةٌ ثمَّ خانة، وأنا لا أدري أيَعمَلُ أم لا. ولا أدري أعندَه هو أم عندَ غَيرِه. ولا أدري إن رَدَّ ماذا أقول، فإنِّي لا أملكُ اليَومَ ما أقولُ أكثَرَ مِمَّا كُنتُ أملكُ يَومَ وَقَفتُ على أربَعةِ أمتارٍ منه.

غَيرَ أنِّي بَلَغتُ من العُمْرِ ستّاً وأربَعين، ودَفَنتُ أبي، وزَوَّجتُ نَفسي، ورَبَّيتُ ولَدَين، ووَقَفتُ اليَومَ عندَ قَبْرِ امرأةٍ أحبَبتُها ولم أرَها. وقد تَعَلَّمتُ في هذه السَّنَوات الطَّويلة شَيئاً واحداً: أنَّ الكَلِمةَ التي لا تُقالُ في وَقتِها لا تُقالُ بَعدَه أبَداً، وتَبقى في الصَّدرِ تَثقُلُ حتَّى تَصيرَ هي الإنسان.

وقد صَمَتُّ مَرَّةً. مَرَّةً واحِدةً في عُمري، أربَعَ ثَوانٍ في قاعةٍ تَصرُخُ فيها أربَعونَ عائِلة. ودَفَعتُ عن تلك الأربَعِ ثَوانٍ عِشرينَ سَنة.

فَنَظَرتُ إلى الشَّاشة. ونَظَرتُ إلى لَوحةِ المَواعيدِ وهي تُقَلِّبُ أسماءَ المُدُن.

ثمَّ ضَغَطت.

لم أقُلْ كُلَّ شَيء. وأحسِبُ أنَّك عَرَفتَ ذلك قَبْلَ أن أقولَه.

وأعرِفُ أنَّك أغلَقتَ الصَّفحةَ وفي رَأسِك أسئلةٌ تُريدُ لها جَواباً. أرَنَّ ذلك الهاتفُ أم لم يَرِنّ؟ وإن رَنَّ فمَن رَدَّ؟ وهل قُلتُ شَيئاً، أنا التي صَمَتَتْ مَرَّةً فدَفَعَتْ عُمرَها؟ وأين هو الآن؟ وأيُّ الرِّواياتِ الثَّلاثِ هي الصَّحيحة؟ وهل عَرَفَ يَوماً أنِّي جِئتُ؟ وماذا صارَ إلى ذلك الشَّابِّ النَّحيفِ صاحِبِ الكُرَّاس؟ وهل قَرَأَ عادِلُ هذه الصَّفحاتِ؟ وهل سأترُكُها لِبنتي أو أُحرِقُها؟

وأنا لا أملكُ أن أُجيبَك. ولا أقولُ هذا تَدَلُّلاً على قارئٍ أعطاني من وَقتِه ما أعطى، وإنَّما أقولُه لأنَّ الأمرَ على ثَلاثةِ أقسام: منه ما لا أعرِفُه أنا، وهو أكثَرُه. ومنه ما أعرِفُه ولا أملكُ أن أقولَه، فإنَّ في الحِكايةِ أحياءً ولهم عليَّ حُرمةٌ أعظَمُ من حَقِّكَ في أن تَعرِف. ومِنه ما لم يَحدُثْ بَعد.

ولو سألتَني: ولِمَ كَتَبتَ إن كُنتَ ستَكتُمينَ النِّصف؟ لَقُلتُ: لأنَّ النِّصفَ الذي قُلتُه كان يَقتُلُني. ولأنَّ المَرأةَ في بلادِنا تُحكى عنها ولا تَحكي؛ يُقالُ فيها الشِّعرُ وتُغَنَّى في الأغاني ويُترَحَّمُ عليها في المَجالس، وهي جالسةٌ في المَطبَخِ تُقَشِّرُ ولم يَسألْها أحَدٌ ماذا جَرى لها. فأرَدتُ أن أجلِسَ مَرَّةً في المَوضِعِ الذي يَتكَلَّمُ فيه النَّاس.

وأمَّا ما أطلُبُه منك، فهو شَيءٌ واحِدٌ لا غَير: أن لا تُسَمِّيَ ما قَرَأتَه «قِصَّةَ حُبّ».

فإنَّ قِصَّةَ الحُبِّ شَيءٌ يُقرَأُ في المَساءِ ويُبكى عليه قَليلاً ثمَّ يُنامُ بَعدَه. وأمَّا هذا فحَياةُ امرأة: ستٌّ وأربَعونَ سَنةً حَقيقيَّة، فيها ولَدانِ وبَيتٌ ورَجُلٌ صالِحٌ وأبٌ دُفِن، وفيها أربَعُ ثَوانٍ في قاعةٍ تَصرُخُ لم أستَطِعْ فيها أن أنطِقَ باسمٍ من ثَلاثةِ أحرُف.

وإن كان لي أن أقولَ شَيئاً لِبنتٍ في العشرينَ تَقرَأُ هذا، فلن أقولَ لها أحِبِّي ولا لا تُحِبِّي، فما أنا ممَّن يُفتي في هذا البابِ ولا ممَّن نَجَحَ فيه. أقولُ لها شَيئاً واحداً: إنَّ أصعَبَ ما سيُطلَبُ منكِ في عُمرِكِ ليس أن تَصبِري، فالصَّبْرُ تُحسِنُه بَناتُ بِلادي إحساناً عَجيباً وقد عَلَّمْتُهُنَّ إيَّاه

أُمَّهاتُهُنَّ. وإنَّما أصعَبُ ما سيُطلَبُ منكِ أن تَتكَلَّمي في الوَقتِ المُناسِب. فتَعَلَّمي ذلك، وتَعَلَّميه مُبكِّراً.

وأمَّا أنا فقد تَكَلَّمتُ، وقد تَأخَّرتُ عِشرينَ سَنة.

نَوال — طَنجة

الحسابات الرسمية للكاتب



نوال الطنجاوية

عَزيزِي القَارِئ

اسمي نَوال. من طَنجة. في السَّادِسةِ والأربَعين.

ولستُ كاتِبةً ولا أزعُمُ ذلك؛ إنَّما أنا امرأةٌ من بَيتٍ طَنجاويٍّ قَديم، دَرَستُ التَّرجَمةَ ولم أعمَلْ بها، ولي ولَدانِ وبَيتٌ ورَجُلٌ يُحسِنُ إليَّ ولا أُشكيه. وأحسِبُ أنَّ مَن يَراني في السُّوقِ أو في بابِ الثَّانَوِيَّةِ أنتَظِرُ ابني لا يَخطُرُ له أنَّ لي حِكايةً تُحكى. وهذا من حُسْنِ حَظِّي.

ولا أكتُبُ هذه الصَّفحاتِ لأُنصِفَ نَفسي، فإنِّي لستُ مَظلومةً بما يَكفي لأُطالِب. ولا أكتُبُها لأتَّهِمَ أحَداً، فما في الحِكايةِ ظالِمٌ واحِدٌ يُشارُ إليه بالإصبَع؛ وإنَّما فيها رِجالٌ ونِساءٌ فَعَلوا ما رَأوه صَواباً في وَقتِه، وكُنتُ أنا واحِدةً منهم.

أكتُبُها لأنِّي بَلَغتُ من العُمْرِ ما يَكفي لأعرِفَ حَقيقةً واحِدة: أنَّ الذي لا يُقالُ لا يَزول. يَنزِلُ في الصَّدرِ ويَستَقِرُّ ويَثقُل، ثمَّ يَصعَدُ عليك في أوَّلِ غَفلة، في زِحامٍ أو في إشارةِ مُرورٍ حَمراءَ أو في سَيَّارةٍ يُشَغِّلُ فيها ابنُكِ أُغنِيةً.

وأُقَدِّمُ إليك شَرطَين:

أمَّا الأوَّلُ فأن لا تَنتَظِرَ قِصَّةَ حُبٍّ جَميلة. في هذه الصَّفحاتِ حُبٌّ، نَعَم، غَيرَ أنَّه حُبٌّ جَرى في بِلادٍ لها قَوانينُ غَيرُ مَكتوبةٍ أشَدُّ من المَكتوبة، وفي عائِلةٍ تُحسِنُ الظَّنَّ بالنَّاسِ ما لم يَقتَرِبوا من بابِها.

وأمَّا الثَّاني فأن لا تَنتَظِرَ مِنِّي أن أخرُجَ بَريئة. فقد صَمَتُّ حيثُ كان الكَلامُ واجِباً، ووَقَفتُ حيثُ كان المَشْيُ مُمكِناً، وفَتَحتُ فَمي مَرَّةً واحِدةً في مَكانٍ واحِدٍ فلم يَخرُجْ مِنه صَوت. وذلك الصَّمتُ الواحِدُ كَلَّفَني عِشرينَ سَنة.

وأستَأذِنُك في شَيءٍ: سأُغَيِّرُ بَعضَ الأسماء، وأُخفي بَعضَ المَلامِح. فإنَّ في الحِكايةِ أحياءً وبُيوتاً قائِمةً وأبناءً يَذهَبونَ إلى المَدارِسِ في الصَّباح، ولي فيهم ما لي. وأمَّا اسمي واسمُه فلن أُغَيِّرَهما، لأنَّهما قد قيلا في مَكانٍ آخَرَ ولم أُستَأذَنْ أنا فيهما.

محمد الملوكي